الْبُرْهَانْ

تَأَمُّلَاتٌ فِي الْعِلْمِ وَالْقُرْآنْ

الجزء الأول

مازن الشريف

مقدمة عامة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي علّم الإنسان أجود العلم وأجمله، وأرق الكلام وأفضله، وأعذب البوح وأجزله، وأرقى الأدب وأكمله.

والصلاة والسلام على نبي الهدى، ونور المدى، المبعوث بالحق والخير واليقين، وعلى صحبه المجتبين، وآله الطاهرين، ومن اتبع هداه إلى يوم الدين.

لكم يعجب الإنسان من ذاته حين يراها على غير ما عهدها عليه وبغير ما نظر به إليها، فكذلك الحال في التردي والسمو، والتباعد والدنو، فكم غريبا عن ذاته، وكم مترد في حياته، وكم عاجب من نفسه، متهاو معها حتى يرد القاع الصفصف، أو مترق بها حتى يلامس ما لا تطاله إلا روح حرة، ونفس متحررة، وعقل مستنير، وقلب سليم، فهذا شأن الإنسان منذ أن كان آدم، مخلوقا بيد الرحمان، منفوخا فيه من روح الديّان، معلما لملائكته من الأسماء مفتونا بشيطان، نازلا للأرض في هوان، تائبا أوابا متلقيا كلمات الحق من الحق سبحانه فانيا أبديا قديما جديدا متجددا..

وإن حالتي وأنا أراجع كتابي "البرهان" بعد سنين من كتابته، ضمن ذلك التعجب الذاتي الإنساني، فقد عجبت من ذاتي ومن نفسي وعقلي، إذ أن التوقع لم يكن يبصر قليلا أو كثيرا من هذا المدى القرآني العلمي الذي وفق الله إليه في هذا الكتاب، رغم أن الطريق لمنحته كان محنة مفنية وامتحانات مضنية، وأنا مؤمن إيمانا يقينيا أن الله سبحانه يمنح على قدر المحنة، ويمتحن على قدر المنحة، فكل

ممنوح ممتحن، ولكن ليس كل ممتحن بممنوح، فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء إن الله ذو الفضل العظيم.

في طرابلس، وبتاريخ السبت **27** شوال **1427**هـ الموافق **18** نوفمبر **2006** م كتبت فاتحة البرهان بعد أن دونت منه نصيبا، ثم أكملته بفضل الله كاتبا القسم الأول منه بيدي قلما على ورق، ثم بعد رقنه أكملته كتابته على الحاسوب حتى بلغ المدى خمسة آلاف صفحة في فنون للعلم شتى، وأسميته بحمد الله "البرهان"، لأني تأملت من خلاله وفيه وبه براهين قرآنية علمية ذوقية رفيعة، تجدها إن شاء الله في صفحاته، وفي أجزائه وما سييسر الله لي نشره منها.

لم تدم فترة الكتابة على كثرة ما فيها طويلا، لكن مخاضها السابق وتحقيقها اللاحق أخذا زمنا. وقد عدلت في فاتحة الكتاب وفي محتواه وراجعته مرارا وتكرارا وذلك شأن كل كاتب يدقق ويراجع ويعدّل ولا يرى الكمال فيما يكتبه. كما كان لي أحوال وقصص كثيرة قبل كتابته وكانت محن لا تعد عشتها بصبر وألم في وطني تونس، منه ما كان من قسوة الأيام، ومنه ما كان من جور الظالمين ممن كانوا يحكمون البلاد ويبطشون بالعباد، ومنه ما كان من بلاء الدنيا، وأمرُّه من ظلم الأحبة وظلم نفسي لنفسي. ثم كان في قدر الله أن أغادر كطائر مكسور الجناح، فجئت طرابلس لا أملك من عرض الدنيا شيئا، حتى جعل الله لي مخرجا.

كتاب البرهان شكل تغييرا في حياتي كلها، وكان بركة تامة، لأن من خدم القرآن صادقا جعل الله سبحانه له سبيلا، وكم لله من يد ومن نعماء، فطفت دولا وأمصارا، ومدنا كثيرة، أدقق وأحقق، وأحاور وأناقش، فجمعني الله بنخبة من كبار العلماء، وأفاضل المشائخ، وكثير من الطيبين، وساعدني وأيدني إخوة كثيرون أعرفهم ويعرفون أنفسهم وإن لم أذكرهم بالاسم فإني مدين لهم وباق على ودّهم.

بين المحنة والمحنة كانت رحلتي قبل هذا الكتاب ومعه وبعد كتابته، فقد كنت قبـــل كتابته مباشرة في محنة كتبها الله علي، ففررت إليه، ولجـــأت إلى كتابـــه العظـــيم وقرآنه الكريم، فوجدتني كلما اشتد علي وجع القهر وسوط الدهر أقرأ القـــرآن، فقرأته حرفا حرفا، وتأملته كلمة كلمة، وقد كان ذلك ديدني منذ عانقت أنواره، ولكن المحنة إذ اشتدت جعلت الحبل أكثر اتصالا، والفكر أكثر انشغالا، فكان أن أصبح كتاب الله قوة روحي في مواجهة عســـف الأيـــام وســـطوتها وقـــوة الآلام وقسوتها، فحفظه قلبي، ووعاه عقلي، وجدته منسوخا بشكل كامل في صـــدري، وكل ما في هذا الكتاب وهذه التأملات، بل كل حرف كتبته وسأكتبه، فمن هدي هذا القرآن ونوره، فضلا من الله ورحمة، وفتحا من لدنه على قلبي وبصيرتي.

لا أخفي أني درست العلوم التي كتبت عنها وقرأت منها نصيبا، وأني كنت مدمنا على المطالعة والقراءة منذ صغري الأول، لكن ذلك لا يكفي لأفسر حال الكتابة، لأن كل تلك الأرضية المهيأة في العقل لا يمكن أن تنتج معرفة أو إبداعا إن لم تكن منحة الإبداع وموهبة التأليف مودعة من الحكيم الخبير مصقولة بـــالمحن مهذبـــة بالتجربـــة.

مازال القلب ينتشي حين أذكر حال الكتابة ذاك، إذ أن اللغة تطيـــع، والفكـــر يلين، ومازال ذلك الحال الكتابي يرجع باطراد ولكن الانبجاس الأول أجمل دائما.

ولعل أهم ما ميز حال الكتابة يُسر التمشي داخل العلم المعني وقوة الترابط بينـــه وبين كتاب الله (أمر لك أن تتبين صحة ما أقول فيه من عدمها)، كما أن حضـــور آيات القرآن الكريم أمام بصيرتي كان حضورا جليا قويا كلّيا، وهو من بركـــات حفظ القرآن ووجوده في الذهن، وبذلك كان الغوص عميقا وكان التأمل صـــافيا هادئا.

والكتاب تأملات في العلم والقرآن، بالتدبر والحجة والبرهان، ولكنه ليس محاولة لإثبات صدقية القرآن وإعجازه، فذلك ثابت في القرآن وحجته فيه أقوى، ولكنه يقصد العلم والإنسان، فيحاور العلم تأملا، ويحاور الإنسان تدبرا، ليكون الخير للعلم في ذاته، ككون فكري تأملي يحتاج روح القرآن وما يمكن للعقل أن يقارب من علمه وللبصيرة أن تستجلي من سره والإدراك أن يستنبط من محكمه وأحكامه وحكمه. ثم يكون الخير للإنسان كمحتاج دائم لمزيد الرقي وللتأمل والتفكر والتدبر وتطوير الفهم وتعميق الصلة بين القرآن والعلم والعالم وذاته، فأنا موقن أن القرآن نبراس للعلم وفيه من روح العلم وخلاصته وفيه مما نعلم ومما لا نعلم ومما سيتعلم العالَم والعالِم حتى يرث الله الأرض ثم تشرق من جديد بنور ربها. كما أني مؤمن يقينا أن القرآن رسالة من الله للإنسان، وأن الإسلام دين كوني، فذلك من رحمة الله للعالمين رحمة تجلي نور كلماته وأسرار آياته، ورحمة نبي الهدى والنور والحب والسلام والرقي والجمال والجلال والكمال، نبي أرسله المولى سبحانه رحمة للعالَمين وحجة للعالِمين وبرهانا إلى أبد الآبدين.

على كل ستجد في أجزاء البرهان، وفي طيات هذه التأملات، مقاربة في العلم والقرآن منها ما كان تأملا تفكيريا وتطويريا لعلم بذاته مما يوجد في خزينة العلم البشري، ومنها ما هو تأمل إلهامي لعلم منشأ داخل علم موجود أو لعلم مبتكر مستجد في خلاصات ومختزلات وعصارات ودقائق هي من قبيل اليقين عندي وهي من قبيل التصور عندك لك أن تنظر فيها وتناقشها، أن تقبل منها ما لامس عقلك وأن تتذوق منها ما عانق وجدانك، ولك أن تحقق وتدقق وتتأكد من كل علم على حدة تفسيرا أو تطويرا أو ابتكارا، وستجدني أصل كل ذلك الكون العلمي بكتاب الله فحين أقول علم الجمال مثلا فأنا أعني علم الجمال القرآني، أي

علم الجمال كما تأملته من خلال مفهومه الأساس ثم كما صغته من خلال تأمله في كتاب الله وتدبر آيات تحتويه ثم ما كان من إعادة صياغة تنطلق من القرآن لترجع إلى علم الجمال فيصبح الناتج علم الجمال القرآني، وهكذا، وأنا في ذلك أسعى بما يسر لي الله وأشعر أن الأمر توفيق لا كسب عقل، وقد توافقني أو تخالفني، وقـد تجدني أصيب أو تراني أخطأ، لكني في كل الأحوال مخلص لك، بكـل تواضـع ومحبة، وبكل إيمان بأن كتاب الله بوابة ربانية للعلم، وأنه منطو على علوم لم يُعلـم منها إلا القليل، وأن كل فنون العلم لم تجعل في الأصل إلا للرقي بالإنسان ومنحه قدرة أكبر على فهم ذاته والتفاعل مع الحياة والكون وفعل الأفضل والأحسـن، وأن كل تلك الفنون العلمية جعلت أساسا لتكون طريقـا إلى الله ومنـهاجا إلى الإيمان به وصراطا للإستقامة والتقوى.

إن ديدني في كل تأملات البرهان تأسيس علوم ومفاهيم جديدة كليـا او إضـافة مفاهيم جديدة لعلوم موجودة سلفا مع ربط بالقرآن العظيم، واستلهام منه، وسير على هداه، فهو مصدري ومرجعي، ومعيني ومنبعي، ضمن ربط ومنهج ومصـفوفة وأطر وخلاصات، فذلك القانون الأساس للكتاب كله.

إن القرآن مأدبة الرحمن، وفيه من كل خير وفضل وعلم نور وحجة وبرهان، كريم يجود بلا انقطاع، وكلم طيب يعطي أكله كل حين بإذن ربه، أولم يضرب الله المثل ولله المثل لأعلى عن كلمة طيبة، فهل أطيب من القرآن كلمـة وهـو كـلام الله سبحانه المترل على خير خلق الله عليه صلاة الله وسلامه..فالغريب أن لا يُسـتنبط من كتاب الله كل حين علما وفهما وحكمة، فلنقتبس من نور القرآن، ولنستلهم منه ففيه الذخر لكل زمان ومكان، ولنقف بالأعتاب سائلين الله نور المعرفة وأنوار العرفان ومدد العلم وجودة الفهم، آخذين بالأصول مـن الأوائـل الفحـول، مستخدمين ما سخر لنا الله من علوم ومعارف للرجوع إلى القرآن العظيم بأسـئلة

جديدة ورؤى مستجدة تستلهم الإبداع من إعجازه، وتستبصر الحقائق في كنفه، وتستخرج الكنوز من بحار أنواره ومشكاة أسـراره. ولنصـل قلوبنـا وعقولنـا وأرواحنا بكتاب الله ولنكن فيه متدبرين تدبر إيمان وعلم يقين، فذلك أمـر رب العالمين، وتلك دعوته إلى يوم الدين: " أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿24﴾"[1]

تونس

الثلاثاء 25 محرم 1433 هـ الموافق 20 ديسمبر 2011 م

[1] محمد

فاتحة

"نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾"[2]

بسم الله الذي فتح بالخير أبوابه، وهدى للخير أحبابه، وأنزل بالخير كتابه. نحمده حمدا لا يُحصى عددًا، ولا ينتهي أبدا، ونذكره ونشكره فردا واحدا صمدا، ونستغفره ونستجيره عونا وحفظا ومددا. به نعوذ وبحماه نلوذ، الخالق للملكوت الحي الذي لا يموت، رب الأرض ورب السماء، محيى الموتى ومميت الأحياء.

نشهد أنه الحق كما قالَ وكما أنزلَ وكما علّم وكما أظهر وكما أخفى، ونشهد أن مُحَمّدا عبده ورسوله أرسله بالنور والخير فبلغ ووفّى. عليه صلاة الله دائمة قائمة لا يُرد عطاؤها ولا يُخمد سناؤها ولا يُحجب ضياؤها ولا يحصى عددها ولا يغلب مددها. صلاة تقربنا منه وتلهمنا عنه وتدنينا من قرباته وتشفينا بمكرماته.

وبعد، فإن لله رجالا قاموا لهدي الأمة وكشف الغمة، فسلكوا في ذلك طرقا، وكانوا على ذلك فرقا، كل يلتمس للحق سبيله، ويقيم على الحجة دليله. ولكن المجال شاسع والمدى رحب وواسع، وعلى الرغم من كثرة الاختلافات حينا، وشدة الخلافات أحيانا، فإن المجال التأملي في كتاب الله لا ينغلق أبدا، وليس لعالم أو باحث أن يحيط بكل أسراره وكنوزه، ففيه من العلم أحسنه وأرقاه، ومن الذوق أكمله وأبقاه، وفيه الحكمة البالغة، والقصص الحق، ومحجة الشرع وحجج الحقيقة والصراط المستقيم...

---

[2] الصف

ضمن هذا الكون النوراني، جال القلب وهامت الروح، تلتمس بكل حب نفحة وطيبا، ونظر العقل وتدبر واستنبط، ليكون هذا الكتاب، تأملا في كتاب الله، ومن خلاله في كشكول من العلوم، وجملة من المعارف، فكان القرآن مصدرا ومرجعا، وإقليدا ومقلادا، وكان الكتاب كله رحلة في العلم من خلال القرآن، ورحلة في القرآن من خلال العلم، ثم هو على ذلك تأملات ونفحات، بلغة ذوقية راقية، وأسلوب سلس متين، ومحاولة للرقي بفهمي الإنساني والعقلاني، إلى مجالات روحية وقلبية أرحب، حيث يرتقي الإنسان أكثر، ويزداد العقل حكمة وتمكنا، في توضيحات وشروح ودروس وابتكارات..

والبرهان رسالة في العلم والقرآن، ضمن روابط منطقية وتأملية، ولا يمكنني أن أنسب كل حرف وكل علم فيه لعقلي المجرد، ولكن إيماني العميق يسمح لي أن أقول بكل أريحية: "إن الله يفتح على قلب من يشاء بالحكمة والخير، ولا أرى كثيرا مما في هذا الكتاب إلا ضمن ذلك..مع ما محصه عقلي وارتضاه فكري وأدركته بصيرتي ووعاه إدراكي"....

وسيكون الكتاب كله في شكل دروس، أخاطبك فيها مباشرة، أخاطب عقلك..وقلبك، وروحك، وأنبل ما في ذاتك، وفق خيط من النور القرآني والتأمل الصافي والتمحيص العقلي، ولا أراها إلا خطوة جريئة للعقل والقلب معا، في طريق الاستنارة بالقرآن العظيم، ضمن فهم ذوقي أزكى، ونظر علمي أعمق...

إلى كل إنسان يحب الحكمة ويعشق العلم، وإلى كل مؤمن بالله الواحد الأحد، إلى كل محبي الحقيقة والعاكفين في محراب الهدي القرآني والهدى المحمدي..أهدي هـــذا الكتاب...

مازن الطاهر الشريف

طرابلس

السبت 27 شوال 1427هـــ الموافق 18 نوفمبر 2006 م

مقدمة

(في العلم والقرآن)

الحمد لله الذي علم الإنسان أجود العلم وأجمله..وأرقى الأدب وأكمله..وأرق الكلام وأفضله.. وأعذب البيان وأجزله...

والصلاة والسلام على نبي الهدى، ونور المدى، المبعوث بالحق والخير واليقين، وعلى صحبه المجتبين وآله الطاهرين ومن اتبع هداه إلى يوم الدين.

العلم نور الله، والله نور السماوات والأرض، والعلم ما بين السموات والأرض نظم وقوانين، وما فوقهما إحاطة ربانية وسر إلهي تفرد به يلتمس منه مخلوقوه قليلا قليلا...وهو سبحانه يعلّم من يشاء ويهدي بالعلم من يشاء ويفتن به من يشاء.

والعلم الذي مكن الله للإنسان نظم وفنون، لم تُجعل في الأصل إلا للرقي بهذا الإنسان ومنحه قدرة أكبر على فهم ذاته والتفاعل مع الحياة والكون وفعل الأفضل والأحسن، وكل ذلك لم يجعل إلا طريقا إلى الله ومنهاجا إلى الإيمان به وصراطا للاستقامة والتقوى، وهو تاج العلماء الحقيقيين، العلماء الربانيين، الذين شرفهم الله سبحانه بهذه الآية العظيمة: " شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا

هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (18)"[3]

والذين ذكر الله عز وجل سيماهم وسمتهم وخشيتهم له في آية عظيمة: "إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ (28)"[4]

والقرآن كتاب الله، كتاب نزله على عبده ليكون هاديا للناس ورحمة للعالمين بشيرا ونذيرا: " تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (1)"[5]

كتاب عظيم، فيه من القصص أحسنه، ومن العلم أجلّه، وفي من كل مثل وموعظة، وفيه هدي وتشريع...فهو كتاب يهدي للتي هي أحسن وأقوم ويبشر بالخير والأجر الكبير المؤمنين بالله والعاملين الصالحات الفاعلين للخير:" إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا (9)"[6]

كتاب للعبر والمواعظ عبر أحسن القصص: " نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ (3)"[7]

كتاب للتأمل والتفكر، فيه تصريفات وضروب لكل مثل لعل الإنسان يتذكر ويعتبر: "وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا (54)"[8]

---

[3] آل عمران

[4] فاطر

[5] الفرقان

[6] الإسراء

[7] يوسف

" وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (27)"[9]

فهو كتاب فيه منطق وحجج وأدلة وبراهين، ونظم وقوانين، يحتاج تفكرا وتدبرا، ولقد دعا الله لتدبر القرآن: " أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا (82)"[10]

لكن السؤال هنا بين ضفتي العلم والقرآن: هل هذا التدبر عام أم خاص؟؟

أي هل كل قارئ للقرآن عليه أن يتدبره، وهب أنه فعل وكان ذا عقل راجح وفهم جيد وذوق حسن، ثم استلهم واستنبط وكتب، فماذا نقول له وماذا نقول عنه؟؟

طبيعي أن كل قارئ لديه لب وقلب وإيمان عليه أن يتدبر القرآن، إلا من ختم الله على قلبه:" أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (24)"[11]

ولكن ما يخص التأمل والاستنباط العلمي، فستكون الإجابة عند بعضهم اليوم هي الآتية: "إن كان من السلف الصالح فيؤخذ منه". وإن كان من أهل هذا الزمان، فهل أجرم!!

إن الملاحظ لدى بعضهم أنهم يريدون الرجوع بالزمان قهرا أو توهما إلى الخلف، في المظهر، وفي الأسلوب، وفي المنطق العام،

---

[8] الكهف
[9] الزمر
[10] النساء
[11] محمد

رافضين هذا الزمن وأهله، مكفرين أكثر الناس، وناظرين بازدراء للأجيال الجديدة، لا يعجبهم بحث باحث، ولا تدبر متدبر، بل الأمر إتباع أعمى وتقليد مريض، مازجين الغث بالسمين، والصالح بالطالح، والعلماء الربانيين بأدعياء العلم، حاصرين كل شيء في فهمهم وفهم من يأخذون العلم منهم اجترارا بالوراثة، مجمدين العقول وحاجرين الفكر، فكأن قائلهم: "لا يحق لأحد بعد السلف أن يتأمل في كتاب الله أو يفسره أو يربطه بأي علم لم يربطه السابقون به!"

من أراد أن ينكر ما لسلف الأمة الصالح من فضل وخير فهو دعي كذاب، وشقي مرتاب، ومنبت تقطعت دونه الأسباب.

ومن أراد أيضا أن يلغي كل الأجيال ويبقي جيلا أو جيلين فقط، أو يحجر العلم في زمن دون سواه، ويجعل القرآن وعلومه حكرا على فئة من أهل الإيمان والفهم دون أخرى، فهو إما جاهل أحمق أو دجال فاسد أو عدو للأمة ودينها ولرقيها وتطورها وحياتها التاريخية الممتدة في الماضي والحاضر والمستقبل، فهو ببساطة يريد قتل الأمة وتجميد دينها في مظهر متوهَّم وشكل متجمِّد وقالب جامد، فيكون التركيز على الخلقة لا على الخلق، وخاصة في دعواهم عن إتباع النبي الكريم عليه الصلاة والسلام، ويكون التركيز على الأحكام لا على الإحكام..وهو مبحث أرجع اليه لاحقا، ويكون التركيز على الموت لا على الحياة، فتمتلئ الخطب كلاما عن عذاب القبر وعن ملاحم في الغيب أكثرها تهويم من إسرائيليات بائسة لا علاقة لها بالقرآن والسنة وكأنّ همَّ المؤمن

أن يعيش الخوف من عقارب في القبر كالجمال لا أن يعي أن عقارب الزمن تحصي حياته وأن عليه أن يكون قمة في الذوق والجمال وفي القيم والخصال وفي القول والفعال وأن يحاول أن يكون الأفضل في كل مجال، وأن رسالته تعمير الأرض والرقي بالإنسان وفهم الكون بالعلم والإيمان لأن ذلك يحقق تعبده الحقيقي لله الذي من أجله خلقه، فذلك شأن النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم وإخوانه من الأنبياء والرسل عليهم السلام وأتباعهم وتلاميذهم وأصحابه وآله وصالحي أتباعهم رضي الله عنهم.

كل من حصر علوم القرآن في فترة وقلة ولم يقبل سوى ذلك عدو للقرآن وروح القرآن، لأن القران العظيم مصلح لكل زمان ومكان، ولا أحب كلمة "صالح لكل زمان ومكان" وكأنه مرهن بمدة صلاحية وخاضع لفاعلية الزمان والمكان وهو تنزّل من فوق كل ذلك، ولكنه فاعل في الزمان والمكان، كل زمان وكل مكان، وعلى كل أهل زمان ومكان تدبره والتفكر فيه وبه، آخذين بما سبق متأملين وفق ما مكنهم الله منه في ذلك الكتاب، فعلوم القرآن لا حد لها ولا حصر، بين النبي عليه الصلاة والسلام منها وفسر وشرح، وكتم الكثير مما علمه ربه وهو أمر معلوم بالوعي بمكانته عند الله وبكونه نبيه، وخص بعض أصحابه دون بعض بأسرار وعلوم، ثم بين أصحابه وآل بيته وأتباعهم ضمن سلالة طويلة من العلماء من تلك العلوم الكثير والكثير، ولكن أحدا من أهل العلم الرباني الحقيقيين لم يقل أنه أحاط بكل العلم أو حجره

فيه أو في زمنه، لم يفعل ذلك النبي نفسه فكيف يفعله سواه، وهو الداعي بدعوة ربه إلى التأمل في كتاب الله والاغتنام منه فسماه مأدبة الله.

ولكي أوضح رؤيتي في هذا الشأن فإني سأبين مفهومين أساسيين في نظري في علوم القرآن، يضافان إلى علوم كثيرة أخرى فيها الغيبي وفيها المشاهد وفيها القديم والسرمدي والأبدي والمستقبلي وفيها عن البعث والجنة والنار وعن الجن والملائكة وغير ذلك:

* **1***علوم المعنى: أعني بعلوم المعنى ما كان مرتبطا بالمعاني والقيم، وبالعلاقة بين العبد وربه ومعانيها، وبالعبادات وما تعنيه، وبقصص لها معان ومدلولات، وهذه العلوم كان للسلف سبق فيها وقطعوا شوطا كبيرا مستندين إلى النص القرآني من جهة والبيان المحمدي من جهة ثانية وقد نهل الفقهاء وعلماء العقيدة والتشريع من ذلك كما نهل المهتمون بالصقل والتهذيب والقيم القرآنية...وهي علوم يمكن فهمها بالنظر والاستنباط لارتباطها بعوالم معنوية تحتاج فهما ونظرا وتعمقا ووعيا، مع التوقف ضمن ما يخص علوم المعنى الخاصة بالله سبحانه على الصفات وفهمها دون النظر في الذات بل أخذ الآيات بتأويل لمعناها ينأى عن الحدود المادية للفهم وعن التصور الظني له، فعلوم المعنى في القرآن كثيرة جدا، ولا حصر لها، وكل ما بينه السلف منها يمكن البناء عليه بعد دراسته وفهمه لمزيد الإثراء بما يتماشى مع تطورات الإنسان وأسئلته وقضاياه دون القطع مع السابق ودون قطع اللاحق ومنعه من مجرد النظر،

إذا هذا الجانب يمكن إثراؤه عبر التأمل في علوم كثيرة وهو ما حاولت القيام بجانب منه.

2 علوم التكوين:أعني بعلوم التكوين ما تعلق بالتكوينات للكون عامة والإنسان خاصة والعوالم من حوله، وبأسرار كثيرة جدا لم يكن للسلف علم بأكثرها، فالنبي عليه الصلاة والسلام أراه الله سبحانه ما لا يمكن لعقل تصوره من أسرار العوالم، ولكن الذين تدبروا القرآن بمقدورات عقولهم ومقدّرات عصورهم لم يفهموا الكثير من المسائل لأن الإنسان في تلك الفترات كان لا يعلم حقيقة المجرات مثلا والكثير من أسرار الآفاق والأنفس، وعليه فعلوم التكوين تنقسم أساسا إلى علوم الآفاق وعلوم النفس أو الذات البشرية، ومن علوم الآفاق علم الكون، ومنه علوم الأبعاد والعوالم، ومنه علوم الأرض، ومنه علم الذرة، ومنه علم ما هو أدنى وما هو أكبر، فيكون مجال للفيزياء بأبعادها، بـ"الماكرو" و"الميكرو". أما علوم الأنفس فليس فقط علم النفس بل ما في الذات البشرية كلها فمن ذلك علوم الذات الإنسانية ونظمها وأسرار الجسد والعقل والنفس والخلايا ومجالات للطب والفيزيونوميا وصولا لأسرار الحمض النووي وعلم الجينات الوراثية وغير ذلك كثير...

صحيح أن القرآن ليس كتاب قواعد فيما ذكرت من علوم، ولكن الآيات التي تتحدث عن التكوين كثيرة جدا، وفيها علم حقيقي يزكي ما اكتشف الإنسان، وليس الأمر متعلقا في نظري بإثبات أن القرآن من الله عبر تتبع آيات الإعجاز العلمي، لأن

القرآن غني عن داعم خارجي فحجته فيه، ولكنه متعلق بقارئ القرآن كي يطمئن قلبه أكثر وكي يفعّل عقله ويعمل نظره ويجد نفسه وزمنه ويرى جانبا من عظمة كتاب الله في علوم التكوين وهو يطور فهمه لقوله تعالى مثلا: "وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا (5)"[12]، عبر النظر فيما صور الكون العجيبة التي التقطها مرصد "هابل" مثلا...

ولأن البشر زمن النبي عليه الصلاة والسلام كانوا لا يعلمون من هذا إلا القليل المختلط بالأسطوري، فقد جاء التحدي الإلهي واضحا جليا ضمن ما بينت من تقسيمات فقال سبحانه وتعالى: "سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (53)"[13]

فالتحدي في مجالين هما الآفاق والأنفس، ولعمري إن أهم اكتشافات الإنسان منذ بداية ثورته العلمية وخاصة في هذا العصر فهي في الآفاق وفي الأنفس، فما أكثر ما اكتشفه الإنسان في الكون والأرض، وما أكثر ما اكتشفه في ذاته، والأمر مؤداه الرباني واضح جلي: " حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ" وبضمانة ربانية لذلك قال سبحانه "أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ" فهو محيط بكل شيء رقيب لتحقق غاية الرؤية وهي تبين الحق، وحين تربط هذه الآية بآية أخرى تحمل ضمانة الله الشهيد وهي

---

[12] الشمس
[13] فصلت

قوله سبحانه: "هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا (28)"[14]
تيسر لك فهم مؤدى تبين الحق وتسنى لك استشراف المستقبل البشري في علاقته بالدين الإسلامي.

فعل الرؤية مرتبط بالله سبحانه، ضمن الآفاق والأنفس، وهما الركيزتان الأساسيتان لعلوم التكوين، وحين ننظر في التاريخ العلمي وبداية تحقق تلك الآيات نتوقف عند "كوبرنيكوس" الذي حطّم جملة من القوالب الجامدة والعقائد الدوغمائية في فهم الكون من قبل الكنيسة، فالكنيسة اعتبرت مثلا أن مجرة درب التبانة مجرد خط من الضوء، وأن الأرض ثابتة منبسطة وهي مركز الكون والعوالم ، الأمر الذي فنده "كوبرنيكوس" بين القرنين الخامس والسادس عشر بنظرية مركزية الشمس وكون الأرض جرم يدور حولها وبحقيقة مجرة ترب التبانة وغير ذلك مشجعا علماء الفلك على تحطيم ما تبقى من قوالب والبحث العميق الشجاع في علم الفلك وحقائقه.

وأزمة الكنيسة تلك هي أزمة الذين ظنوا أنهم بفهم لعلوم المعنى في النصوص المقدسة قد فهموا علوم التكوين، مع ما أضافوه لعلوم التكوين تلك من تفسيرات عقيمة وتصورات سقيمة ضمن الوضع والدس، وهنا تسرب الوهم المدنس في النص السماوي المقدس، ليعتبر الوهم بعد ذلك مقدسا، وهنا ننظر في تفسيرات

---

[14] الفتح

كثيرة للسلف تجد فيها أن الأرض على قرن ثور مثلا، وكذلك حول كون النجوم معلقة بالسلاسل، وصولا لأساطير أخرى وتفسيرات كثيرة، مثل هاروت وماروت وكونهما ملكان نزلا الأرض وعشقا امرأة اسمها زهرة ثم عوقبا بالسجن في آبار بابل وتعليم السحر وتحولت تلك المرأة إلى كوكب الزهرة وبقيت معلقة، وغير ذلك مما سأرجع إليه في سياقه، وامتلأت الكتب بالخرافات، والفهوم الخاطئة للكون والمكونات. رغم أن من تجني التاريخ العلمي محاولة إغفال أن علماء مسلمين سبقوا كوبرنيكوس وجهابذة العلم الغربي في حقائق عن الكون والإنسان.

الكنيسة رفضت كل فهم يحطم فهمها المزيف لعلوم التكوين، أو يبين التزييف والوضع والدس في الكتب المقدسة، وحين صدح غاليلي قائلا أن الأرض تدور، بعد اختراعه للمرقب الفلكي(التلسكوب) عام **1609** ميلادية ، وقع قتله ثم اعتذرت الكنيسة إليه بعد قرون، حين تبين بما لا يقبل الشك والدحض..أن الأرض فعلا تدور..

تطور علم الفلك، وما أسهم فيه العلماء المسلمون، ثم ما كان لاختراع المرقب والمرصد والمجهر من أثر في فهم الكون والجزئيات، غير الكثير من الفهم العلمي لدى الإنسان، وأثبت ويثبت كل يوم حقيقة صدق التحدي الإلهي في آية الآفاق والأنفس ووضوح الرؤية، والغاية الحق، بتقدير إلهي مسبق، مكن لإنسان اليوم ما لم يتسن لإنسان قبله بتمكين من الله لكل البشر

فمن فعل به خيرا كان لـه ومـن فعـل بـه شـرا كـان عليـه، فالإبـداع ليس بدعة والاختراع لـيس فتنـة والتطـور لـيس نقمـة والـزمن يسـير للأمـام ولا يرجـع للخلـف أبـدا، الحكمـة في التـأقلم والتفاعـل والفعـل في الحاضـر والمسـتقبل لا في الهـروب لـزمن مـاض، مـع كـل التبجيل والتقـدير لصـالحي أمـة سـيدنا محمـد صـلى الله عليـه وسـلم ولكل الصالحين منذ آدم عليه السلام.

كتـابي "البرهـان..تـأملات في العلـم والقـرآن" قـراءة في علـوم المعـنى وعلـوم التكـوين ضـمن ارتباطهـا بـالقرآن الكـريم، ضـمن قسـمين علميين:

* قسم من علوم موجـودة قمـت بدراسـتها وفهمهـا قـدر مـا مكـن لي الله ثم اسـتلهمت مـن القـرآن في ربـط يبحـث عـن وجودهـا فيـه وفي تطوير مفهومي لتلك العلوم بشكل مختزل.

*وقسـم مبتكـر كليـا، لعلـوم اسـتلهمتها عـبر النظـر في كتـاب الله وعبر تأمل مفـاهيم مفـردة مثـل الحجـة لأصـوغ منـها "علـم الحجـة"، وفيه قوانين مستلهمة مسـتجدة ونظـر جديـد أثبـت بـه حقـي كمسـلم من هذا العصر في النظر والتأمل والاستنباط.

والكتـاب دعـوة للتأمـل والتـدبر، رحلـة في مـا أسميتـه علـوم المعـنى لأصل بعد ذلك إلى علـوم التكـوين ومسـائل أخـرى، وأنـا علـى يقـين أن ضـوء المشـكاة الـتي أرى بهـا كـل هـذا المـدى العلمـي الشاسـع ومداد الأقلام الـتي أكتـب بهـا هـذه البحـوث وشـراع السـفينة الـتي أبحر بها في محيطـات القـرآن الشاسـعة و بحـار العلـم الزاخـرة، أن كـل ذلك منحة مـن الله وفضـل مـن لدنـه وفـتح قلـبي وعقلـي وروحـي،

لكن يظل ما أدونه عملا إنسانيا يروم للرقي ويقبل النقاش ويستوجب النظر والتفكر.

إن الكلمة الطيبة شجرة طيبة تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها: " أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (24) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (25)"[15]

وهل أطيب من القرآن كلمة، وهل أعظم منه شجرة، فليس غريبا إذا أن تؤتي أكلها كل حين، وأن يكتب متأمل وباحث هنا أو هناك كل حين علما جديدا مستلهما من القرآن، بل الغريب عكس ذلك، فإن كان الأمر مرتبط بكل حين، فكيف يعقل أن يحجر العقل ولا يقبل إلا ما أتى منذ مئات السنين!!؟

فما ذلك إلا كالذي يريد زيتا استخرجوه من شجرة زيتون منذ ألف عام، ولكنه يرفض أي زيت استخرج بعد ذلك، ناسيا أن شجرة الزيتون تعيش كثيرا وتمنح الزيت كل عام، مدعيا أن الأيدي التي عصرت الزيتون من قبل واستخرجت الزيت أيد مقدسة، أما الأيدي التي بعدها، فمدنسة بالبدع تستحق القطع!!!

إنه لعمري تحويل للصنم من هيكل حجري يحشر في المعابد إلى هيكل فكري تحشى به العقول والقلوب.

وإن بين الإيمان الذي يقوي الإنسان ويصله بربه ويوصله بتاريخه وحاضره ومستقبله، والتحجر الذي يفصله عن كل شيء ويحبسه

---

[15] إبراهيم

في أوهام مجسدة، هو ما بين البصر والعمى، والظلمات والنور، فأنّى يستويان.." قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ (16)"[16]

[16] الرعد

مدخل

(المصفوفة والإطار)

كتاب البرهان تأمل في كتاب الله مختلف عما تعودته وعما تتوقعه، فهو رحلة في القرآن عبر العلم، وفي العلم عبر القرآن، ضمن نسق مبتكر وأسلوب مميز، وهو قائم على فكرة، وعلى قواعد ونظم، لأنه عمل فكري بالأساس، رغم أن حالي الفكري وأنا أكتبه حالٌ أعتقد أنه فوق الفكر بمعناه الاعتيادي، ليصل إلى الصفاء التأملي ويعطي معنى آخر لقدرات العقل البشري، وخاصة حين يرتبط عقلا وقلبا وروحا بكتاب الله، ولك أن تتبين مدى صحة ما أقول وتبدي رأيك وتناقش بحرية بعد الإحاطة بما في الكتاب.

وقل انطلاقنا في هذه الرحلة البرهانية، أود توضيح أمر مهم جدا لفهم الكتاب ورؤيتي فيه، وهو الوعي بأساسين جوهريين للبناء العام والداخلي للبرهان، وهما "المصفوفة" و"الإطار" وفق نظرتي الخاصة إليهما.

*1*المصفوفة: المصفوفة نظام رقمي رياضي لديه تطبيقات وأوجه أخرى كثيرة، وعلم المصفوفات علم قائم بذاته مستخدم في مجالات متعددة، ولكن ما أعنيه هنا بالمصفوفة (أوالمصفوفة العلمية) فهو: {نظام نسقي تتابعي ترابطي للعلوم ضمن تراتب ارتباطي أفقي وعمودي ودائري.}

فكل العلوم في اعتقادي أصلها واحد، وهو الله سبحانه المعلم لما شاء ولمن شاء، وعليه فهي مرتبطة بمصدرها الأول وهو الخالق، ومؤدية إليه، وكل ما لم يؤد إلى الله من العلوم فهو منقوص أو فتنة.والخالق سبحانه جعل العلم ضمن نظام دقيق جدا، وهذا النظام ارتباطي بالأساس، فترتبط كل العلوم ببعضها البعض ضمن نسق صارم، وتربط كلها بالله، فالعلم بالله هو قمة العلوم كلها، وهو مجال شاسع جدا لي فيه تأملات أخرى، ثم تأتي العلوم تباعا، وطبيعي أنه من المحال على عقلي أو عقلك إدراك كل ذلك، ولكن يمكنني عبر التأمل والاستنباط رؤية جانب منه، ضمن النموذج الآتي:

*الطب علم علاج وشفاء، متعلق بشكل أساسي بعلم الأدوية.

*الأدوية تركيبات كيماوية تحتاج بالضرورة للكيمياء، فعلم الأدوية مرتبط بعلم الكيمياء.

*علم الكيمياء أنساق ذرية تحتاج لقوانين ونظم، وهنا دور الفيزياء، فعلم الكيمياء مرتبط بعلم الفيزياء.

*علم الفيزياء قوانين نسقية وكمية تحتاج للسان يترجمها، والرياضيات هي لسان الفيزياء.

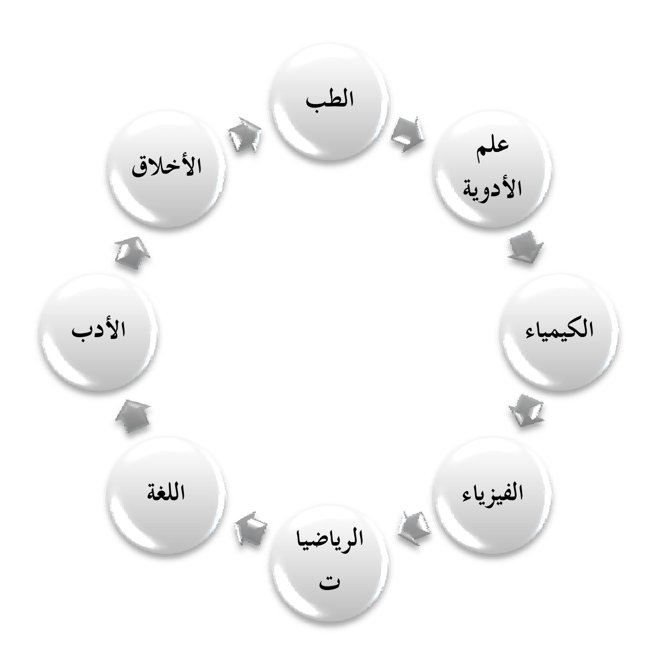
*الرياضيات نظام يحتوي أرقاما وحروفا لها مدلولات، فهي لغة مرتبطة بعلم اللغة وحروفها ورمزيتها، فعلم الرياضيات مرتبط بعلم اللغة.

*اللغة مدلولات وتركيبات حرفية وكلامية قمتها الأدب، فعلم اللغة مرتبط بشكل وثيق بعلم الأدب.

*علم الأدب يدرس الآداب كنتاج ثقافي وحضاري، ولكن الأدب بالأساس قيم، فبدون القيمة لا يكون أدبا، وعلم الأخلاق هو المعني الأساسي بتلك القيم، والأدب الحق صاقل للأخلاق مهذب لها، وعليه فعلم الأدب مرتبط بعلم الأخلاق.

*علم الأخلاق علم منهجي يؤسس لمفاهيم القيم الأخلاقية التي من خلالها يكون الإنسان إنسانا، والإنسان حين يفقد أخلاقه تعتل نفسه ويعتل بذلك جسده، فيحتاج للعلاج، فتكون الأخلاق طب النفس، ولها ارتباط وثيق جدا بعلم الطب من خلال كونها وقاية نفسية تحمي الإنسان، ومن خلال كونها طب نفسي وروحي، ومن خلال حاجة الطب نفسه للأخلاق لأنه من دونها يفقد روحه وقيمه، فعلم الأخلاق مرتبط بعلم الطب، وهكذا عدنا عبر اصطفاف منظم تتابعي إلى العلم الذي انطلقنا منه وهو علم الطب.

ويمكن اختزال ذلك في هذا النموذج ضمن التتابع الدائري:



وهكذا فالعلوم مترابطة متصلة بعضها ببعض، وما هذا الذي استلهمته لك من خلال تأملي إلا نموذج فقط، وهو نموذج دائري، وهنالك كما قلت نماذج أخرى ضمن ترابط أفقي وعمودي.

وفي كتابي هذا ستجد المصفوفة مطبقة بشكل كبير، وسوف تجد الروابط بين العلوم مثل ارتباط علم الذوق بعلم الجمال وعلم الجمال بعلم الأخلاق وصولا للطب والإنسان والاقتصاد والاجتماع والأبعاد وعلم الزمان وعلم الكون...وغير ذلك، ولسوف تحتاج إلى تأمل عقلي قوي حتى تربط كل العلوم في

الكتـــاب ببعضـــها الـــبعض وتـــرى الترابطـــات بينـــها والمصـــفوفة الـــتي اســـتخدمتها فيهـــا، لأني وأنـــا في أول الكتـــاب يلازمـــني الـــوعي بمحتـــواه كله.

*2*الإطـــار: أعـــني بالإطـــار نظامـــا مشـــابها للمصـــفوفة، ولكنـــه مختلـــف عنـــها في أوجـــه، فالإطـــار هـــو المحـــدد للفهـــم والرؤيـــة، وحـــين نغيره نغير الفهم والرؤيـــة، وقـــد تجتمـــع أطـــر شـــتى في موضـــوع واحـــد، وقـــد يـــتغير الإطـــار ضـــمن الموضـــوع الواحـــد حســـب العلـــم المـــؤطّر، وحسب الموضوع المؤطّر.

*مثال: وفـــق علـــم الجمـــال فالإســـلام ديـــن جمـــال، والقـــرآن قمـــة ذوق وجمال لغـــوي ومعنـــوي وأســـلوبي، وفيـــه صـــور للجمـــال ودعـــوة لتأملـــه في الكون والـــذات والنـــهل منـــه وإظهـــار الأجمـــل والأفضـــل والأحســـن، ولنا نماذج كثيرة مثل قولـــه ســـبحانه: "وَقُـــلْ لِعِبَـــادِي يَقُولُـــوا الَّتِـــي هِـــيَ أَحْسَـــنُ (53)"[17]..فـــالتي هـــي أحســـن جمـــال لفظـــي، والحســـن قيمـــة جماليـــة وهنـــا جمـــال معنـــوي فهـــو جمـــال أخـــلاق ومعاملـــة، جمـــال معنـــوي...والـــتي هـــي أحســـن تفـــتح مجـــالا في الـــذوق عامـــة والأدب والجمال خاصة.

ثم تجد الجمـــال الخـــارجي والمـــادي مـــثلا في قولـــه ســـبحانه"يَـــا بَنِـــي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ (31) "[18]

[17] الإسراء
[18] الأعراف

وهـي دعـوة للتـزين في المسـاجد وخاصـة يـوم الجمعـة وهـذه الزينـة جمـال خـارجي مـادي، فـالقرآن يـدعو للجمـال الخـارجي والبـاطني قولا وفعلا....ولي عودة ضمن علم الجمال...

أما في إطـار علـم الأخـلاق فالإسـلام ديـن أخـلاق، والقـرآن كتـاب في الأخـلاق، كتـاب في الهـدى والقـيم، والآيـة السـابقة: "وَقُـلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِـي هِـيَ أَحْسَـنُ (53)"[19] آيـة للأخـلاق أيضـا، لأنها تعبير عن خلق راق، وتثبته، وتدعم نشره...

فـانظر كيـف أن الإطـار حـدد نظرتنـا وأطّـر فكرنـا وتناولنـا للـدين وللقرآن.

ويمكـن اسـتخدام "الإطـار" بشـكل أكثـر دقـة وتحديـدا ضـمن موضـوع موحـد أو آيـة محـددة، فالصـلاة حـين نضـعها ضـمن "الإطار" تسنى القول:

* قوله سبحانه: "وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ (53)"[20]

يمكن أن ننظـر إليهـا تحـت إطـار علـم الأخـلاق، فهـي دليـل خلـق قـويم، ودعـوة لخلـق قـويم، وعلـم الجمـال فتكـون مجـالا للجمـال المعنـوي، أو الجمـال الـذوقي كمـا سـأبين، وفي علـم الأدب يكـون الأدب قـول الأحسـن والأجمـل، ولهـا ارتباطـات بعلـم الاجتمـاع أيضـا، لأن قـول الـتي هـي أحسـن أسـاس للتقـارب بـين الأفـراد ومفتـاح للخـير ومغـلاق للشـر والـنزغ الشـيطاني الـذي ينـتج عـن القول السـيئ والخلـق السـيئ والفعـل السـيئ لـذلك يمكـن لـك أن

---

[19] الإسراء

[20] الإسراء

توسع إطار فهم الآية لترد كاملة فتكون مطابقة أكثر لعلم الأخلاق وعلم الاجتماع: "وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا (53) [21]

ويمكننا أخذ نموذج آخر أعتبره من أهم النماذج التطبيقية للإطار والمصفوفة معا:

*في إطار علم الشرع فالصلاة فريضة على كل مسلم ومؤمن ضمن مواقيت وشروط ونظم:"فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا (103)

*في إطار علم الأخلاق فالصلاة تصقل الخلق وتزكي النفس وتنهى عن السوء: "اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ۖ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (45)"[22].

*في إطار علم الجمال فالصلاة صبغة جمالية تؤثر في الإنسان فتجعله أكثر جمالا باطنيا وظاهريا، ماديا ومعنويا، لأنها تطهره وتصقله، وعليه أن يزكي ذلك الجمال لأنه سيقف بين يدي رب الجمال والكمال سبحانه، وهنا إطار الآية " خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ (31) "[23]

---

[21] الإسراء

[22] العنكبوت

[23] الأعراف

*في إطار علم الحركة (منه الرياضة) فالصلاة حركات منسقة منظمة لها دور تريضي للجسم والنفس وفوائد كثيرة يطول شرحها.

*في إطار علم الطاقة الحيوية فالصلاة منبع قوي للطاقة الحيوية تقويها وتزكيها وتنقيها، وعلم الطاقة الحيوية أكثر المجالات التي بحثت وأبحث فيها.

*في إطار علم الطب فالصلاة شفاء ولها أسرارها في ذلك مقترنة بأسرار القران العلاجية...وهكذا ضمن نسق منظم شاسع بينت منه في كتابي "كتاب الصلاة".

ما بينت لك استخدام للإطار، وهنا يمكن عن طريق استخدام المصفوفة أن نستخدم الإطار لنثري الفهم ضمن ربط منطقي يجعل العلم أكثر عمقا والفهم أكثر إحاطة، ويمكن حينها أن نأتي بالمصفوفة ونضع ضمنها الموضوع أو الآية أو الجانب المعني ونبحث عن تطبيقات الإطار وعن مزيد من العمق والفهم:



مع ملاحظة وجود مصفوفة علمية ضمن ما ذكرت، فعلم الشرع مرتبط بعلم الأخلاق، وعلم الأخلاق مرتبط بعلم الجمال، وعلم الجمال مرتبط بعلم الحركة (الفنون الدفاعية مزيج بينهما والرياضة أساس جمالي...)، وعلم الحركة مرتبط بالطب، وعلم الطب مرتبط بعلم العلاج القرآني (وضمنه علم العلاج بالقرآن وهو نسبي ضمنه) وعلم العلاج القرآني مرتبط بالشرع، فما الشرع والقرآن إلا شفاء لما في الصدور في إطار قوله سبحانه: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (57)"[24] وهو باب من العلم كبير جدا. وكل هذا مرتبط بالصلاة، وبتغيير حركة المصفوفة يمكن النظر

---

[24] يونس

لموضوع الإطار، لأن تطبيق الإطار يكون عموديا ضمن حركة العلوم في المصفوفة بشكل دائري.

"المصفوفة العلمية"، و"الإطار"، ضمن هذا الفهم لهما وهذه الرؤية، هما ابتكاران وجدهما في عقلي أثناء تأملي، أو أوجدهما عقلي أثناء تأمله، أو ربما كان الأمر أكثر روحانية فيكون العلم كله ترق وتلق ونفحات من الله سبحانه لكل عقل مستنير وقلب سليم منها نصيب علم ذلك من علمه وغفل عنه من غفل.

ولسوف أطور فهمي لهما بشكل مستمر بعون الله، وهما مستخدمان في الكتاب، فالكتاب كله "مصفوفة علمية" مترابطة أولها بآخرها وآخرها بأولها،وسأشير إلى بعض ذلك الترابط وأبقي الآخر لك لتتأمله، وكل ذلك مرتبط بالقرآن الكريم، كما أن "الإطار" جوهري، ولذلك قد تجدني استخدم آية في إطار ثم أستخدمها في إطار آخر، دون تناقض مع الأول، ودون تناقض مع علم التفسير، والغاية الرقي بالفهم العلمي، واثبات البرهان، فالبرهنة أساس كتابي، ضمن منطق ذوقي ولغة راقية تنهل من القرآن العظيم، ولذلك لابد لك أن تعي هذه المسائل ليتيسر فهمك لما سيأتي، والله سبحانه من وراء القصد...

" إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (88)"[25]

---

[25] هود

علم الربط

"وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ (14)"[26]

[26] الكهف

ضمن رحلتك في البرهان، وضمن تأملك في هذه التأملات، ستجدني استخدم علما متخللا وجوهريا، فمرة أصرح، ومرة يفهم بالسياق، وهو علم استخدمته منذ قليل في تفسيري لمفهومي المصفوفة والإطار وكنت أكرر "يرتبط" و"مرتبط" أكثر من مرة، وقلت أن العلوم كلها مرتبطة ببعضها، وأن هذا الكتاب فيه روابط علمية وارتباطات منطقية بين أوله وآخره، فعلم الربط مفهوم مبتكر لعلم أعتقد أنه جوهري في كل شيء، وأن العلم حين فقد علم الربط سقط في فخ التخصص الذي لا ننقد فيه إتقان اختصاص بعينه فهو أمر ضروري، ولكن ننقد فيه العلم بأمر مخصص والجهل بالباقي، وننقد الغرور الذي يجعل كل ذي علم لا يرى سواه، وننقد التقصير الذي يجعل الخبير في علم ما لا يمكنه ربطه بالعلوم الأخرى، ولا أعتقد أن ما ذكرته في المصفوفة أمر مطروق، ولا أظن عالما في الرياضيات مثلا يعي ارتباطها باللغة، إلا قلة ممن لا أعلم، ولكن قد أتصور وجودهم...

فالارتباط والترابط بين العلوم وفهمه أمر جوهري، فمأساة عصرنا أوهام الانفصال والتشظي، أمر ممتد من الحياة والمجتمعات الإنسانية ومحاولات تفرقتها، إلى الطائفية والمذهبية والتقسيمات الفكرية والتشظيات السياسية وغيرها، إلى العلوم وتخصصها، فهنالك تشظ بين الأدبي والعلمي، رغم أن العلم بلا أدب لا يساوي شيئا (أعني المثل العليا وروحية القيم)، وأن الأدب بلا علم منقوص ومحدود (حدث ولا حرج عن التشظي والفصل ضمن الأدبي نفسه وضمن الفرعي في الأدب فالشعر مثلا يعاني

ذلك ضمن المعارك بين أنصار الشعر العمودي وأنصار قصيدة النثر وقليل من يفهم الترابط). وكذلك ارتباط الشرع بالذوق، والذوق بالشرع، فقد شاع التفريق بينهما حد التناحر، وهنا مجال المنفرين المتشددين المتحجرين الذين لا يرون في الدين جمالا ولا إبداعا ولا ذوقا بل مظهر بائس وفكر جامد وغرق في قصص العذاب وأهوال القبور، وكذلك جهلة المتصوفة الذين يجهلون ارتباطه بالفقه، ويسقطون في ترهات وتهويمات وخرافات بالية، وأدعياء الفقه الذين يحرّمون ويجرمون التصوف، في حين أن علماء التصوف الحقيقيون فقهاء، والفقهاء الربانيون متصوفة، ولك مثال في الشيخ أبو الحسن الشاذلي المتصوف الفقيه العالم، والعز بن عبد السلام الفقيه المتصوف الذي تعلم التصوف من الشيخ الشاذلي، فالفقه كشرع والتصوف كذوق مترابطان جدا وجوهريان ولازمان، ولي عودة في علمي الفقه والتصوف وسياقات أخرى.

"علم الربط" جوهري، رغم أني لا أرى وجود علم غير جوهري ضمن سفري التأملي هذا، والربط له معان، وحين ننظر في لسان العرب لابن منظور، أبو الفضل جمال الدين العالم والمؤرخ الإسلامي العربي التونسي المولود في قفصة في القرن السابع للهجرة، نجد الآتي:

"رَبَطَ الشيءَ يَرْبِطُه ويَرْبُطُه رَبْطاً، فهو مَرْبُوطٌ ورَبِيطٌ: شدَّه. والرِّباطُ: ما رُبِطَ به، والجمع رُبُطٌ، وربَط الدابةَ يربِطُها ويربُطُها رَبْطاً وارْتَبَطَها.وفلان يرتَبِطُ كذا رأْساً من الدوابّ، ودابَّةٌ رَبِيطٌ:

مَربوطـــةً.
والمِرْبَطُ والمِرْبَطةُ: ما ربَطها به.والمَرْبِطُ والمَرْبَطُ: موضع رَبْطها"
وهذا الكلام جوهري في فهـــم علـــم الـــربط، فهـــو شـــد قـــوي، وارتبـــاط وثيـــق، وكـــل مســـالة علميـــة أو مفهـــوم فكـــري أو موجـــود في الكـــون ربـــيط بســـواه، وهنالـــك بالضـــرورة مِـــربط منطقـــي أو مفهـــومي أو مـــدلولي أو مـــادي أو معنـــوي، وهنالـــك كـــذلك مَـــربَط محـــدد، ومِـــربط معـــين، مكـــان اتصـــال وارتبـــاط وتلاقـــح، وهـــذا ينطبـــق حـــتى علـــى الأشـــخاص والأفكـــار بـــين الـــذوات، وتطبيقاتـــه الكـــثيرة جـــدا، فالروابط اللغوية مـــثلا بـــين الـــدال والمـــدلول مهمـــة جـــدا وجوهريـــة في اللغة، فدال معين يـــرتبط لغويـــا بمـــدلول محـــدد، وذلـــك المـــدلول لغـــوي متغير حسب اللغـــة ولديـــه ارتبـــاط بصـــورة ذهنيـــة محـــددة، أمـــر بينـــت بعضه ضمن فلســـفة اللفـــظ في كتـــابي "تـــأملات فلســـفية"، وربمـــا أفـــيض فيه في سياقات أخرى، منها علم اللغة.
وكـــذلك الـــربط ضـــمن التركيبيـــات الكيماويـــة وتـــرابط الـــذرات وترابط الأدويـــة وتركيباتهـــا وتـــرابط الحمـــض النـــووي داخـــل الإنســـان وترابط نظام الخليـــة وتـــرابط النظـــام العصـــبي وتـــرابط وظـــائف الـــدماغ والحـــواس، ولي عـــود في علمـــي الطـــب والإنســـان، ثم تـــرابط العـــوالم والأبعاد والأزمنة، ما سأرجع إليه في سياق العلوم المعنية بها..
ولكـــل تـــرابط مجـــال للانفصـــال وإعـــادة الـــربط، فالفصـــل والـــربط مهمـــان جـــدا، وعلـــم الفصـــل أبينـــه ضـــمن علـــوم الأبعـــاد، وإن كـــان أشسع من ذلك، فأنت تـــرى كيـــف ترتســـم ملامـــح هـــذا العلـــم الـــذي لم اقرأ عنه في كتـــاب ولا سمعـــت بـــه مـــن قبـــل، فهـــل حقـــا أن الإنســـان

يبتكر من الصفر، ام يبني على ما هو موجودن أم هو بكل بساطة..كائن مُلهم..وهنا بحث عن فاعل الإلهام، كي لا نتوه خلف من نسب إلهام الشعر إلى الشيطان فيقال شيطان الشعر، وكيف لشيطان أن يلهم البردة مثلا وروائع الشعر ورقائقه.

أما في القرآن الكريم، فقد جاء الربط ضمن السياقات التالية:

" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (200)"[27]

إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ (11)"[28]

" وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَٰهًا ۖ لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا (14)"[29]

" وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (60)"[30]

" وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ۖ إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (10)[31]

---

[27] آل عمران
[28] الأنفال
[29] الكهف
[30] الأنفال
[31] القصص

وكل هــذه الآيــات، عــدا آيــة "ربــاط الخيــل"، تنــدرج ضــمن فــرع أساسي من علم الــربط أسميتــه "علــم الــربط الربــاني"...ولكــن الآيــات كلها تحتوي على مــا سميتــهما الــربط الروحــاني والــربط القلــبي وهمــا مــا أســتلهمه مــن الــربط علــى القلــوب وتثبيــت الأقــدام، والربــاط ورباط الخيل، فالربط الروحــي والقلــبي، وهــو ربــط إلهــي بســر مــودع في الروح وفي القلــب، والربــاط في ســبيل الله يــأتي بعــد ربــط الله علــى القلــب، وهــو جهــاد للــنفس وللعــدو، وقــد ورد في لســان العــرب: "الرِّباطُ في الأَصــل: الإِقامــةُ علــى جِهــادِ العــدوِّ بــالحرب"، ولكــن لــه مدى أوســع وأشســع فمنــه قولــه صــلى الله عليــه وســلم: أَلا أَدُلُّكــم على ما يَمْحو اللّهُ بــه الخَطايــا ويَرْفَــعُ بــه الــدرجاتِ؟ قــالوا: بلــى يــا رسول اللّــه، قــال: إِسْــباغُ الوُضــوءِ علــى المَكــارِه، وكثــرةُ الخُطــى إِلى المســاجِد، وانْتِظــارُ الصــلاةِ بعــد الصــلاة، فــذلِكم الرِّبــاطُ"، ومنــه تسميات الرباط فنجــد في تــونس مــثلا ربــاط القــيروان وربــاط المهديــة ورباط المنســتير، وكــذلك مدينــة الربــاط عاصــمة المغــرب الــتي بناهــا الموحــدون في أواســط القــرن الثــاني عشــر للمــيلاد، ودولــة المــرابطين التي حكمت شمال غــرب أفريقيــا والأنــدلس مــا بــين القــرنين الحــادي عشر والثــاني عشــر للمــيلاد، والــتي امتــد حكمهــا مــن شمــال غــرب إفريقيــا إلى شــبه الجزيــرة الإيبيريــة وجنــوب الصــحراء، واتخــذت عاصمة لها فاس فمــراكش. والــتي كــان فيهــا رجــال يرابطــون للجهــاد في ســبيل الله ويوســف بــن تاشــفين أهمهــم، ومعركــة الزلاقــة الشــهيرة في الأندلس شــاهدة علــى حقيقــة القــوة الإيمانيــة لمــن ربــط الله علــى قلبه وارتبط بربه وتحلل من روابط الفناء.

*علم الربط الرباني: وأعني به الروابط الإلهية الخفية والظاهرة بين كل ما بينت آنفا، وبين ما يمكن لك أن تتصور وما لا يمكن لك أن تتصور، في سياقات القدر والقدرة والحكمة الربانية، ما ستحار فيه حين تنظر في حياتك وروابطها العجيبة، وكيف التقيت من التقيت به، وكيف تفارق شخصا سنينا ثم فجأة يخطر ببالك لتجد نفسك تلاقيه، وارتباط ذلك بالروح وعلوم الباراسيكولوجيا والتخاطر وحكمة المقادير، وكذلك الترابط بين ما كرهت فكان فيه خير وما أحببت فكان فيه شر، وهو أمر كثير الحدوث في حياة الإنسان: "وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (216)"[32]

والحكمة من ذلك، ضمن ما أسميه " علم الربط المحكم".

*علم الربط المحكم: فرع من علم الربط الرباني، وهو علم أراه متصلا بين علم الربط وعلم الحكمة وعلم المنطق، فما الحكمة والمنطق إلا نظما من الروابط، والربط الحكيم ربط منطقي بحكمة ربانية، وقد لا يرى فيه الإنسان منطقا في البداية فيكره الأحسن ويحب الأسوأ، وذلك اختلاف بين ما أسميه المنطق الإنساني المحدود (غير المنطق النسبي) وما أسميته "المنطق الرباني المطلق"، وسأعود للتفصيل في علم المنطق.

---

[32] البقرة

وهذا القسم من علم الربط مرتبط أيضا بقوله سبحانه: "وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (2) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ۚ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (3) "[33]

ففي إطار علم الربط، فإن قوله سبحانه: "وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (2) "[34]

أرى من خلاله الترابط المحكم والحكيم بين التقوى وهي جوهر مهم جدا أتكلم عنها في علم الفقه كشرط من شروطه، وهي جوهر التطبيق الفعلي للإيمان الفعلي، والمخرج الإلهي الذي جعله للمتقين، وهنا ربط رباني بين كل ذلك بشكل يجهله الإنسان حتى يحدث معه، ويبقى محاطا بالغموض، فالربط الحكيم لا يحيط به بشكل كامل إلا العزيز الحكيم.

وقوله جل من قائل:" وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ (3) "[35]

فأرى من خلاله ضمن إطار الربط وعلمه أن كل الأرزاق محسوبة مترابطة، رزق هذا عند هذا، ورزق هؤلاء حيث لا يعلمون، والله يقلب الأيام بين الأمم وبين الناس ويداولها بقوة وحكمة رخاء وشدة ومنحة ومحنة: إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (140)"[36]

---

[33] الطلاق
[34] الطلاق
[35] الطلاق
[36] آل عمران

ضمن ربط قوي محكــم حكــيم، وغايــة هــي الــتي تفصــل وتــربط بــين كــل العــابرين لهــذه الحيــاة، فإمــا مؤمنــون وشــهداء، وإمــا ظــالمون وأشقياء، وتلك حكمة عظيمة لتداول الأيام.

والله ســبحانه أيضــا يحــرك الأرزاق والمــرزوقين ويــدفع النــاس ببعضــهم ببعض في ترابط حكيم وربــط محكــم عظــيم، وهــو دفــع لديــه أوجــه في المجتمع والسياسة والحكــم والاقتصــاد خاصــة (علــم أرجــع إليــه ضــمن نظر قــرآني فيــه):"وَلَوْلَــا دَفْــعُ اللَّــهِ النَّــاسَ بَعْضَــهُمْ بِــبَعْضٍ لَفَسَــدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (251)"[37]

هذا الدفع وهذه المداولة ضمن ربط محكم مسطر مقدر.

وقوله عز وجل: " وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ (3) "[38]

فــأرى فيــه الــربط بــين التوكــل كتســليم وثقــة في الله، وتفــرد الله ســبحانه بمســاعدة ذلــك العبــد فيكــون حســبه الله، فكــل حســابات حياته وكل شــيء مــدروس بعنايــة ودقــة وإحصــاء ربــاني، وهــي نعمــة عظيمــة، فالمتوكــل يضــع كــل الارتباطــات الدنيويــة فجانبــا، ويــرتبط كليا بالله، وضــمنه مقامــات لأهــل الله عظيمــة، وضــمنه مــا اســتلهمته ضــمن مــا أسميتــه "علــم الســكينة" وســيكون نموذجيــا بعــد علــم الأخــلاق، فالتوكــل والتســليم ســكينة وطمأنينــة وانتصــار لله وبــالله وفي الله.

وقوله سبحانه: "إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ (3) "[39]

---

[37] البقرة
[38] الطلاق
[39] الطلاق

فلــه في إطــار علــم الــربط وفي أي إطــار شــئت مــدلول قــوي وأثــر كــبير، فهــي حقيقــة عظيمــة: أن الله غالــب علــى أمــره، وبــالغ لــه: "وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (21)"[40]

فمهمــا حــاول أي مخلــوق أن يغالــب الله فــالله غالبــه، فكــل الغلبــة والهيمنة مرتبطة به وحــده، فهــو غالــب وحزبــه غــالبون: " وَمَــنْ يَتَــوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (56)"[41]

وهو غالب وجنده غالبون:" وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (173)"[42]

ولا نصر إلا من عنده: "وَمَا النَّصْــرُ إِلَّــا مِــنْ عِنْــدِ اللَّــهِ الْعَزِيــزِ الْحَكِــيمِ (126)"[43]

ولا نصر إلا به:" إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ(160)"[44]

ولا نصر بســواه مــن بعــده: " وَإِنْ يَخْــذُلْكُمْ فَمَــنْ ذَا الَّــذِي يَنْصُــرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ ۗوَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (160)"[45]

والكلام هنا يطول كثيرا، خاصــة مــع اســتعمال مــا أسميــه "علــم الــربط القــرآني" ضــمن علــم التفســير، فلعلــي أرجــع لــبعض منــه، والبــاقي تقولــه الــروح للــروح دون حاجــة لكلمــات اللســان وعجــز اللغــة وقصور البيان.

أما قوله تعالى: "قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (3) "[46]

---

[40] يوسف
[41] المائدة
[42] الصافات
[43] آل عمران
[44] آل عمران
[45] آل عمران
[46] الطلاق

فهي حقيقة أخرى عظيمة، حقيقة لها في إطار علم الربط ما لها، أولها أن لكل شيء من شدة ورخاء منتهى ونهاية، فلا دوام لحال من الأحوال، وهو المعنى المباشر للآية، ومن خلف ذلك نجد القدر وبدايات مقاديره ونهاياتها وحساباتها وضوابطها، وليس لمخلوق علم ذلك ولكن التيقن من وجوده حقيقة لا ظنا، فما القدر إلا خط من الترابط المذهل والذي يفوق التصور، والنظر في التاريخ يفسر بعضا من ذلك، وهنا ترابط التاريخ بالحاضر والمستقبل لمن يفهم ويحلل ويستقرئ ويعتبر.

*علم الربط المحيط: ما أسميه "علم الربط المحيط" هو جانب آخر من علم الربط الرباني، ومن شواهده القرآنية في اعتقادي قوله سبحانه قوله في ختام نفس السورة التي أخذنا منها الآيتين لعلم الربط المحكم: "اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا (12)"[47]

فهنا ربط كوني وأرضي ومجالات يتوه الفكر فيها تأملا ضمن إطار روابطها ببعضها وروابطها الدالة على خالقها وكيفيات الفهم والعلم بأن الله على كل شيء قدير وما يكون ضمن العلم بالله الذي أمضي في أنواره بعد هذا العلم، فلا يمكن لمخلوق أن يحيط بكل الروابط، ووحده الله سبحانه أحاط بها، وأحاط بكل شيء،

[47] الطلاق

وآيات الإحاطة قد يكـــون التأمـــل فيهـــا أعمـــق ضـــمن علـــوم المشـــاهدة والتماهي والجلال فيما سيأتي ضمن البرهان.

خلاصة

علــم الــربط علــم شاســع، لــك أن تتأمــل فيــه بقلــب نقــي وروح متيقظة وعقــل مســتنير، ولــك أن تســتخدمه العلــم لتنظــر في التــرابط ومــا أسميــه "الحكمــة الترابطيــة" في قصــص الأنبيــاء في القــرآن، وستذهل لما ســتراه في قصــة نــبي الله يوســف مــثلا وترابطاتهــا وارتبــاط قوله سبحانه:" إِذْ قَالَ يُوسُــفُ لِأَبِيــهِ يَــا أَبَــتِ إِنِّــي رَأَيْــتُ أَحَــدَ عَشَــرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (4)"[48]

وقوله: " وَدَخَلَ مَعَهُ السِّــجْنَ فَتَيَــانِ ۖ قَــالَ أَحَــدُهُمَا إِنِّــي أَرَانِــي أَعْصِــرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِــي أَحْمِــلُ فَــوْقَ رَأْسِــي خُبْــزًا تَأْكُــلُ الطَّيْــرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ ۖ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (36)"[49]

فقوله: " وَقَــالَ الْمَلِــكُ إِنِّــي أَرَىٰ سَــبْعَ بَقَــرَاتٍ سِــمَانٍ يَــأْكُلُهُنَّ سَــبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُــنْبُلَاتٍ خُضْــرٍ وَأُخَــرَ يَابِسَــاتٍ ۖ يَــا أَيُّهَــا الْمَلَــأُ أَفْتُــونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ (43)"[50]

ثم قوله: " وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَــا وَادَّكَــرَ بَعْــدَ أُمَّــةٍ أَنَــا أُنَبِّــئُكُمْ بِتَأْوِيلِــهِ فَأَرْسِلُونِ (45)" [51]

---

[48] يوسف
[49] يوسف
[50] يوسف
[51] يوسف

إلى قوله تعالى: " وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (100)"[52]

وهنا تكون تجلي الربط وتجلية معانيه وخفاياه وخباياه، أمر نجده في الحياة كثيرا ولا نكاد نلمسه حقيقة لأن أكثر ربط خفي ضمن ما أسميته "علم الخيط الرفيع" وهو فرع لطيف من علم الربط ولكنه علم منفرد قد افرد له مبحثا خاصا مختزلا لأنه أفق ممتد وبحر بلا حد.

وفي قصة نبي الله يوسف عليه السلام حكم ومعان، وسأرجع لبعضها في دروس في وهو ما سأرجع إليه بمزيد من التفصيل في علم التأويل، وكذلك قصة نبي الله موسى، وسواها من القصص، حتى تجد قصتك أنت، لتعلم أن العالم من حولك كله مترابط من السموات والأرض إلى البيت الذي تسكن فيه والسرير الذي تنام عليه ومن ثم جسدك أوتارا وأعصابا ونظما، لديك روابط أسرية وصلة رحم عليك أن تتفقدها وتعطيها حقها، وأن لديك سلالة أنت مرتبط بها من أجدادك إليك وإلى أولادك وأحفادك من بعد، وأن كل البشر مرتبطون في عائلات وقبائل ودول وصولا إلى أبيهم آدم، ثم تحاول تلمس الروابط بين أحلامك وواقعك،

[52] يوسف

وروابط تعبير الــرؤى ودلالاتهــا وعلمهــا، وبــين نفســك وذاتــك، وبــين روحــك وجســدك، وإصــلاح تلــك الــروابط جــوهر علــوم الــنفس وعلم التصوف وعلــوم فنــون الــدفاع وجــوهر التشــريع كلــه، لتصــل الى إصــلاح الــروابط مــع ربــك وتفعيلــها، وفصــل روابطــك مــع نفســك الأمــارة وشــيطانها، وهكــذا فــلا ربــط إلا بفصــل، ولا فصــل إلا بعد ربط، فانظر الروابط مــا أشــدها ومــا أكثرهــا ومــا أبلــغ أثرهــا، ثم لــك أن تمضــي إلى كتابــة القصــة والســنياريو، لتطــور بفهمــك للربط مــن الــروابط بــين الأحــداث والأبطــال، ثم تجــد نفســك تــربط كل ذلــك بعلامــات ودلالات لتجــد علــم أشــراط الســاعة وارتباطهــا بمشــهد في التلفــاز لقارعــة أو حــدث عجيــب أو ممــا تــراه بعينــك عاديــا، أو حــتى في فلــم ســينمائي يمــر دون أن تنتبــه إليــه أو تفهــم خلفياته وحقائق مــا يبديــه ويخفيــه وارتباطهــا بوكالــة الفضــاء وبــبعض المعتقــدات وبعــض اللمحــات ومــا لهــا مــن ارتبــاط بالإلهــام والــرؤى الجماعيــة... ثم لــتعلم في منتــهى تأملــك للــروابط أن كــل شــيء مرتبط بــالله خالقــه ومســيره، وســتلمس أوجهــا أخــرى لــذلك ضــمن علــم التمــاهي.فــذلك جــوهر مــؤد إلى علــم جليــل، هــو العلــم بالله..فإلى رحاب العلم بالله.....

" لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّــهَ عَلَــىٰ كُــلِّ شَــيْءٍ قَــدِيرٌ وَأَنَّ اللَّــهَ قَــدْ أَحَــاطَ بِكُــلِّ شَيْءٍ عِلْمًا (12)"[53]

---

[53] الطلاق

العلم بالله

"فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ (19)"[54]

[54] محمد

لماذا وُجد العلم في حقيقته وجوهره، وإلى أين يصل عند اكتماله؟ ومن أين جاء ومن علّمه لمن علمه ومن ألهمه له أو يسر السبل إليه بمشيئته؟

للإجابة عن هذا الأسئلة الجوهرية في العلم، من خلال التأمل في كتاب الله، فإني أدعوك لتتأمل معي هذه الآيات كبداية:

" اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (5)"[55]

هذه الآيات هي أول ما نزل من القرآن الكريم، وهو ما أؤمن به وأرتضيه رغم وجود من يقول غير ذلك، ومن يصل حد إنكار قصة الغار أصلا...مدعيا إعمال العقل!!!

آيات أولى...أول كلمة هي "اقرأ"..والقراءة فهم ونظر ووعي ودراسة وتدبر..هي كل ذلك...فإن قيلت لأميّ لا يقرأ..فهي حين توجه لمن يتبعه ممن يقرأ وممن عليه أن يقرأ، فتعني اقرأ وابحث وتدبر واعتبر وافهم وأبدع...فهو مطلب رباني منذ أول كلمة..فكيف يصبح المتدبر بعد ذلك مصدر خطر وفتنة وبدع!! إلا أن يكون من السلف حسب ظن بعضهم..وما هو إلا افتراء وكلام يراد به تحجير العقول المتدبرة القارئة كي لا تكتشف ما لا يبغون لها أن تكتشف من شأن من دسوا وحرفوا وباعوا ضمائرهم للشيطان وعقولهم لحاكم وسلطان...

---

[55] العلق

القـــراءة الـــتي طُلبـــت مـــن الـــنبي الأمـــي...قـــراءة مشـــروطة وليســـت مطلقـــة..محـــددة بآليـــة القـــراءة ووســـيلتها..وهـــي اســـم الله: " اقْـــرَأْ بِاسْمِ رَبِّـــكَ"...واســـم الله محـــدد بخاصـــيات تـــبين مـــن هـــو الله ســـبحانه: "الَّذِي خَلَقَ" على المطلـــق..فهـــو بيـــان عامـــا لقـــدرة الله وحقيقـــة كونـــه الخالق لكل شيء...

ثم يخصص: "خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ(2) "[56]

حقيقة ثانية مخصصـــة للإنســـان، والـــنبي طبعـــا إنســـان ورســـالته موجهـــة لنبي الإنســـان أساســـا لأنـــه منـــهم ثم للثقـــل الثـــاني (الجـــن)....والخلـــق من علق حقيقة علميـــة لم تتأكـــد إلا بعـــد أكثـــر مـــن ألـــف ســـنة وقـــرون أُخر من نزول الآية...

وبعـــد الخلـــق يرجـــع إلى الـــرب الـــذي ســـيقرأ باسمـــه: "اقْـــرَأْ وَرَبُّـــكَ الْأَكْرَمُ (3)" [57]

تأكيـــد علـــى القـــراءة...فهـــو الأكـــرم..الكـــريم المتجـــاوز لجهـــل العباد..والأكثر كرمـــا وتكرّمـــا وإكرامـــا...وكرامـــة أيضـــا..وهـــو يكـــرم من شاء ..فهل كرم أعظم من النبوة؟؟

ثم يقول: "الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4)" [58]

هـــو تعلـــيم بـــالمطلق...لمعّلـــم غـــير مبـــيّن..وهنـــا وســـيلة الله في التعليم..والقلم في فهمنـــا البشـــري أداة كتابـــة..وربمـــا كـــان المعـــني أمـــرا آخـــر...يتجـــاوز فهمنـــا المحـــدد لـــه..ولســـت هنـــا كمخاطـــب بـــالقرآن

---

[56] العلق
[57] العلق
[58] العلق

بحكم إيماني به مطالبا بالبحث عن معنى القلم ضمن مستواه الرباني لأنني لن أفهم بحكم أن ما يعنيني هو القلم كوسيلة علم وكتابة..ولكن قلم الله في قلب نبيه قلم آخر حتما،.لأنه لم يعلمه الكتابة والقراءة من ورق...بل علمه وحيا من لدنه...وعلما يقرؤه من صدره لا من سطور الصحف..

ثم يبين حقيقة علمية أخص: "عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (5)"[59]

لأنه صاحب العلم الكامل الكلي..فقد علم هذا الإنسان المخلوق من عدم ما لم يعلم..

طبيعي أن هنالك كلمة مهمة جدا وهي ربك المكررة مرتين..فالربوبية موجهة إلى النبي..وربك هنا تحمل معنى المربي المحب..والحامي..فهو كلمة تحمل حبا إلهيا لنبيه محمد...حب وتقريب وطمأنة..وكل كلمة مثلها في القرآن فهي تحمل تلك المعاني...بنسبة الذات الربانية إلى الذات المحمدية عبر الكاف والياء أي "رَبُّكَ و"رَبِّي" أو "ربِّ" والتي ترد دائما بعد "قل" أو "قال" وغالبا حين تكون عن نبي غير محمد عليه الصلاة والسلام والنماذج كثيرة لك أن تتأملها...مثل قوله سبحانه:" وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ (58)"[60]

وقوله:" قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (85)"[61]

---

[59] العلق

[60] الكهف

[61] القصص

وقوله: "وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (118)"[62]

ثم قوله على لسان نبيه محمد عليه الصلاة والسلام: " قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (4)"[63]

وقوله على لسان نبيه نوح عليه وعلى نبينا السلام: " قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ (26)"[64]

فكأنما الله سبحانه قال له: اقرأ، تدبر وتفكر، تكلم في العلم واعلم وعلّم...باسمي....بتمكيني وقدرتي، وربوبيتي وخلقي، وتعليمي وعنايتي..

أنا ربك...مربيك وحاميك ومحبك... وأنا خالق كل شيء..وخالقك أنت وكل إنسان..من علقة...وأنت إنسان من خلقي..

وأنا أكرم الأكرمين أكرم من شئت وان مكرّم عندي..وأنا علمت بالقلم..وعلمت كل إنسان ما لم يكن يعلمه من قبل..فان كنت غير قارئ..فسأعلمك...

فالقارئ باسم الله سيقرأ كلام الله ويقرؤه للناس..فذلك القرآن...ما سيكون ضمن "اقرأ"..وما ستخطه الأقلام وتستنبط منه بفهم وتدبر...فكأن الله أراد من نبيه أن يعرفه قلبا ويعلمه إدراكا ويؤمن به يقينا...وهنا مجال شاسع ومدى واسع لمتدبر فطن ومستنبط ملهم.....

---

[62] المؤمنون

[63] الأنبياء

[64] المؤمنون

فتلك القراءة والـدعوة لهـا مـع شـروطها واشـتراط اقترانهـا باسـم الله فهي منه وبه...هـي مرحلـة ومرتبـة مـن الـوعي بـالله..التـيقظ والتنبـه لوجوده...بعد غفلة عـن ذلـك رغـم إحسـاس بـه...ثم تـأتي معلومـات عـن الله تقـرب العلـم بـه والـوعي بوجـوده...ويـأتي بعـد الخلـق العلم..كـل هـذا في أول آيـات القـرآن..وكـان أول مـا ينبغـي علـى النبي كان الإيمان بالخـالق ثم العلـم بـه...ولكـن الأمـر مـع غـيره ممـن يوجـه إلـيهم القـرآن لأن القـرآن موجـه للـثقلين خاصـة..والإنسـان بشـكل أخـص..يمـر عـبر مراحـل أخـرى منـها النظـر والتفكـر، ثم الإسلام باللسـان، فالإيمـان بالقلـب والفعـل الـداعم، فـالعلم بـالإدراك عبر آيات الوجود الإلهي لا ذاتيته التي لا يمكن إدراك كنهها....

حـين ننظـر في مسـتويات الآيـات بـين التعمـيم والتخصـيص نجـد تقسيما رائعا بديعا، خاصـة حـين نعلـم أن كلمـة "اقـرأ" كُـررت علـى النبي عليـه الصـلاة والسـلام مـن قبـل جبرائيـل عليـه السـلام ثلاثـا والنبي يقول: ما أنـا بقـارئ، فحـين نضـيف ذلـك نجـد هـذه الأنسـاق الثلاثة



وحين نفكك ونقنن ما بينا يمكن أن نستنبط الآتي:

***1* القراءة العامة: تدبر وتمعن ونظر وفهم....والدعوة العامة خص بها كل الناس ضمن سياقات كثيرة للقراءة العقلية والبصرية والتمثلية كقوله سبحانه: " أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (17) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (18) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (19) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (20)"[65]**

فكل هذا دعوة عامة لقراءة كتابي الكون والأرض وما فيها من كائنات...

***2*القراءة الخاصة: وهو ما منح الله نبيه، فلقاه قرآنا، وعلمه بيانا، وزاده فضلا وإحسانا، وعلما وحكمة وعرفانا: "وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ (6) "[66]**

---

[65] الغاشية
[66] النمل

وهو وحي من عنده وتعليم من لدنه، ونور وروح وفضل عظيم:" وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (52)"[67]

وهنا مجال للمؤمنين بالله الذاكرين له الذين يتفكرون وينظرون في ملكوته وآيات خلقه وبراهين وجوده بإيمان ويقين وعلم بالله : " الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (191) "[68]

3الخلق العام: فالله خلق كل شيء: " ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (102)"[69]

وضمنه التكوين، ما خلق من الكون وفيه...وضمنه ما سماه الله سبحانه "الآفاق"...

4الخلق الخاص: خلق للإنسان، فهو مخلوق، والأمر لحكمة، ثم تخصيص الخلق "من علق"...وهنا علم الإنسان وخلقه وتصويره وغير ذلك من معطيات علمية دقيقة العلم البشري الحديث حقيق على أن يقر بها مسلّما بإعجازها، كقوله سبحانه: " يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ

---

[67] الشورى
[68] آل عمران
[69] الأنعام

ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (5)"[70]

فسبحان الله كيف لخصت كل الوجود الإنساني ومساره وحقيقته...لتفتح باب التأمل في حياة الأرض بالماء ومنه على البعث تيقنا وفق بناء منطقي على صحة كل ما سبق..وهو علم حق في كتاب حق، وهنا جانب الأنفس، وكنت بينت في المقدمة الخاصة بالعلم والقرآن الآية الجامعة للتكوين أو الآفاق والأنفس، وسأورد معها الآية الموالية لها في آخر سورة فصلت.." سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (53) أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ (54)"[71]..

فالرؤية الجلية للآيات في الآفاق والأنفس بوابة للتيقن من الله ومن لقائه...فذلك من جوهر العلم بالله...

5<u>التعليم العام</u>: تعليم الله سبحانه لكل من خلق...وهو علم منظم للمخلوقات موجود في الخلق عامة، ولدى الخلق عامة بمراتب... ولكنه يميز في آيات سورة "العلق" التي نحن بصددها بالتعليم بالقلم ، وتخصيص التعليم بالقلم لا يحد من تعميم التعليم

---

[70] الحج
[71] فصلت

لأن القلم كما قلت مجهول ضمن معناه الرباني الصوري ومدرك ضمن متعارفه الإنساني المحدود...

العلم عام منحة إلهية لمن خلق، كل حسب مقامه ومرتبته، فالنحل علمه الله كيف يتخذ من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون وكيف تأخذ الرحيق وكيف تعرف السبل وهو علم عظيم وعجيب ومذهل: "وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (68) ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (69)"[72]

فهو إلهام منه...شبيه بالبرمجة...فطرة وآليات...لكن ليست تعقلا تطويريا...

والملائكة علمهم الله تلقينا مباشرا لهم، وحدود علمهم ما علّمهم ربهم سبحانه بعلم وحكمة: " قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ۖ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (32)"[73]

6*<u>التعليم الخاص</u>: تعليم خاص للإنسان المخلوق من عدم، وهو تعليم لكل إنسان، ابتداء بأول إنسان وهو آدم عليه السلام:" " وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا (31)"[74]

---

[72] النحل

[73] البقرة

[74] البقرة

مع ما علّمه لأنبيائه ورسله ولنبيه محمد من علم القرآن وما شاء له من علم وصولا إلى كل إنسان عامة: " الرَّحْمَٰنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (3) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (4)"[75]

وضمن القسم الخاص بالإنسان عامة دور علم الكتابة وخطورته..والقلم بمعناه البشري وأهميته، والتعلّم والتدبر والفكر عامة والثقافة الإنسانية الراقية، ودور اللغة والبيان، مع معطى كون البيان نفسه تعليم إله وهو فصل في تاريخ اللغات مهم وخطير للبحث عن البيان الذي علمه الله للإنسان، ثم هل للإنسان بعد ذلك دور تطويري، وإن ثبت هذا الدور، وهو في الحقيقة ثابت، فكيف تم وما الحكمة الإلهية منه، مع اليقين أن كل نقلة علمية كانت بمشيئة الله وحكمته...

إذا خلاصة ما استلهمناه من آيات سورة العلق، أول آيات من القرآن نزلت على نبي الهدى والرحمة محمد صلى الله عله وسلم، كأول درس لهن ولكل المؤمنين به، أن الله رب محمد خالق كل شيء وخالق الإنسان كريم مكرم علّم من خلق وعلّم الإنسان وخصّه بما شاء من علم، وبما لم يكن له أن يعلمه لولا فضل الله عليه وتعليمه له، والذي إن أراد أن يكون مكرما عنده الله فعليه أن يقرا باسمه، أي أن يقرأ معتمدا على الإيمان بالله والاستعانة بالله...وعلى العلم بالله..وهو جوهر ما نحن بصدده...لأنه إن قرأ دون ذلك لم ينل من كرامة العلم شيئا وكان مفتونا بما

---

[75] الرحمن

علم....فالعلم إذا ما كـــان بـــالله ومـــن الله..والعلـــم مـــا كـــان لله..وكـــل ذلك العلم لديه هدف واحد وغاية وحيدة: "العلم بالله"....

"لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَـــمُ مَـــا فِـــي السَّـــمَاوَاتِ وَمَـــا فِـــي الْـــأَرْضِ وَأَنَّ اللَّـــهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (97)"[76]

[76] المائدة

رحلة الإيمان

" قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا (14)"[77]

بعد ما بينته لك من تأملات في أول آي القرآن، فإني أرجع بك إلى آية افتتحنا بها هذا العلم الجليل وهي قوله سبحانه: " فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ (19)"[78]

هذه الآية كانت بوابتي لاستلهام واستنباط هذا العلم، فالعلم بالله كمفهوم عقائدي موجود ومثبت، ولكنه كعلم مفرد استلهام ونفحة أشرقت في قلبي من خلال هذه الآية، فالقلب حين يكون عامرا بالحب، وحين ينهل بحب من القرآن العظيم، مع ما تتلقاه الروح من صاحب سرها، وما أعده العقل لتيسير ذلك من معارف وقراءات، أمكن الوصول إلى إشراقات حقيقية، ليجد المتدبر العلم ييسر له، والفهم يقترب من ذهنه، وهذا الكلام فيه ما فيه حين يوجّه لمن يحفظ القرآن لفظا ولا يتدبره معنى ولا يستلهم ويستنبط منه كلمة، وحين يوجه أيضا لمن يختم القرآن في رمضان مرات ولا يتدبر منه آية واحدة، فليست العبرة في الحفظ بل في الحفاظ، وليس الأمر في القراءة البصرية فقط، بل في القراءة القلبية والعقلية فيصفو القلب وتسمو الروح ويُصقل العقل ويترقى...

---

[77] الحجرات

[78] محمد

الآيـــة تحتـــوي أمـــرا ربانيـــا واضـــحا جليـــا بينـــا للـــنبي عليـــه الصـــلاة والسلام: " فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ (19)"[79]

وقد نزلت في ســـورة "محمـــد"، وهـــي في ســـياقها الكامـــل كآيـــة كـــالآتي: "فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَـــا إِلَـــهَ إِلَّـــا اللَّـــهُ وَاسْـــتَغْفِرْ لِـــذَنْبِكَ وَلِلْمُـــؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَـــاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ (19)"[80]

الآية وما فيها مـــن أمـــر بـــالعلم أنـــه لا إلـــه إلا الله، تفـــتح أبـــواب هـــذا العلم، فالعلم بـــالله جـــوهر العقيـــدة، فالتوحيـــد علـــم بـــالله حـــين يصـــبح توحيـــد عرفـــان وإحســـان، أي معرفـــة يقينيـــة ووعـــي حقيقـــي أن الله حق فكأنه يُرى فإن لم يكن يُرى فهو يرى، فذلك مقام الإحسان.

ولابد من فهـــم مـــا أراه ضـــمن ســـبر هـــذا العلـــم المســـتنبط مـــن هـــذه الآيـــة، وهـــو أن الإســـلام لله مرتبتـــان، فـــالأولى مـــا أسميـــه "التســـليم بـــالوجود"، ولكـــن بشـــكل عرضـــي، والثانيـــة مـــا أسميتـــه "التســـليم للموجد"، بشكل جوهري.

التسليم بـــالوجود يكـــون باللســـان فتنطـــق الشـــهادتان بمـــا يـــبين إقـــرارا بوجـــود إلـــه أرســـل نبيـــا، ولكـــن القلـــب لازال في غمـــرة ولا زالـــت عليه غشاوة فلـــم يصـــله نـــور الإيمـــان، وهـــي مرحلـــة الإســـلام القـــولي العرضي، وهـــذه الآيـــة خـــير شـــاهد: "قَالَـــتِ الْـــأَعْرَابُ آمَنَّـــا ۖ قُـــلْ لَـــمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِـــنْ قُولُـــوا أَسْـــلَمْنَا وَلَمَّـــا يَـــدْخُلِ الْإِيمَـــانُ فِـــي قُلُـــوبِكُمْ ۖ وَإِنْ

[79] محمد

[80] محمد

تُطِيعُوا اللَّـــهَ وَرَسُـــولَهُ لَـــا يَلِـــتْكُمْ مِـــنْ أَعْمَـــالِكُمْ شَـــيْئًا ۚ إِنَّ اللَّـــهَ غَفُـــورٌ رَحِيمٌ (14)"[81]

والطاعة هنا تسليم للأوامر وهو منهاج للوصول للإيمان الحق.

أما التســـليم للموجـــد فهـــو بعـــد الإيمـــان، لأن الإيمـــان نـــور في القلـــب فعّله العمل وجســـده الفعـــل فكـــان في الـــنفس زكـــاة وفي الـــروح يقينـــا، فلا ريبة ولا شـــك، بـــل إيمـــان بـــالله ورســـوله ومجاهـــدة وجهـــاد بالمـــال والـــنفس، فـــذلك ميـــزان الإيمـــان الفعلـــي والصـــدق الحقيقـــي، وهـــو درس يبينه الله بعد الآيـــة الســـابقة:"إِنَّمَـــا الْمُؤْمِنُـــونَ الَّـــذِينَ آمَنُـــوا بِاللَّـــهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَـــابُوا وَجَاهَـــدُوا بِـــأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُســـهِمْ فِـــي سَـــبِيلِ اللَّـــهِ ۚ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (15)"[82]

وقمـــة هـــذه المرتبـــة مـــن الإيمـــان بـــالله مـــا أسميتـــه التســـليم للموجـــد، فيكون إسلام الوجـــه لله وتســـليم لحكمـــه وحكمتـــه وهـــو بـــاب الإيمـــان المحض، أن يســـلم المـــؤمن وجهـــه لله، يســـلم كـــل حياتـــه ومصـــيره، وأن يكـــون محســـنا، فـــاعلا للخـــير، فـــذلك مـــن شـــروط صـــدق التســـليم ومصداقية المســـلِم المســـلّم لله، فتلـــك حنيفيـــة الســـلام، وذلـــك "أحســـن الدين"، فتأمل قوله ســـبحانه: " وَمَـــنْ أَحْسَـــنُ دِينًـــا مِمَّـــنْ أَسْـــلَمَ وَجْهَـــهُ لِلَّهِ وَهُـــوَ مُحْســـنٌ وَاتَّبَـــعَ مِلَّـــةَ إِبْـــرَاهِيمَ حَنِيفًـــا ۗ وَاتَّخَـــذَ اللَّـــهُ إِبْـــرَاهِيمَ خَلِيلًا (125)"[83]..

---

[81] الحجرات
[82] الحجرات
[83] النساء

والحنيف في لسان العرب هو: "الـمُسْلِمُ الذي يَتَحَنَّفُ عن الأَدْيانِ أَي يَمِيلُ إلى الحقّ، وقيل: هو الذي يَسْتَقْبِلُ قِبْلَةَ البيتِ الحرام على مِلَّةِ إبراهيمَ، على نبينا وعليه الصلاة والسلام، وقيل: هو الـمُخْلِصُ، وقيل: هو من أَسلم في أَمر اللّه فلم يَلْتَوِ في شيء، وقيل: كلُّ من أَسلم لأَمر اللّه تعالى ولم يَلْتَوِ، فهو حنيفٌ. أَبو زيد: الحَنيفُ الـمُسْتَقِيمُ"

فالميل للحق، والإخلاص، والاستقامة، كلها مكونات للتسليم الفعلي والجوهري لله سبحانه، إنه الإسلام الحق، وهو شرط الإيمان، تسليم وطاعة لله ولرسوله، حبا وكرامة، وعرفانا وإيمانا، وضمنه طاعة مفروضة لله ورسوله، وقبول بحكمة الله وحكمه، وبحكم النبي وحكمته الموحاة من الله، وضمنه قوله سبحانه: " فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا **(65)**"[84]

بعد هذا، أرى أن مرتبة عليا فيها زيادة خير، وهي جوهر ما أراه ضمن المسمى العلمي المبتكر لمسمى عقائدي موجود هو علم "العلم بالله"، أي تقنين للعلم بالله وبيان معانيه وحقيقته ضمن علم مستقل وهو أمر غير مسبوق ككل ما في البرهان من نفحات واستنباطات وابتكارات.

هذه المرتبة كما أعتقد، هي بعد الإيمان والتسليم الفعلي للموجد، ولكن ليست تجاوزا بل ترقيا، فالإسلام لله، أو ما أسميته "التسليم

[84] النساء

بالوجود"، مرحلة من الإسلام عامة، من الدين وحقيقته القلبية والفعلية، ولكن هذه المرحلة وهذه المرتبة يقع تجاوزها كليا حين يصل الإنسان إلى الإيمان الحقيقي الفعلي، وما أسميته "التسليم للموجد"، وهنا يلامس المعنى الحقيقي للإسلام، ويصل الإيمان قلبه فينيره، ونفسه فيزكيها، فيسلم وجهه لله مستقيما محسنا مخلصا واثقا موقنا، وهذا التجاوز ليس تجاوزا للإسلام لله، بل تجاوز للحالة العرضية من التسليم بالوجود، إلى الحالة الجوهرية من التسليم للموجد، فيكون حينها مسلما لله ضمن إيمانه الفعلي به، لا مسلما لله ضمن كلام يقوله بلسانه وليس في قلبه منه شيء، وآية: " قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ (14)"[85]

فيها نفي للإيمان عن من أسلموا قولا، وفيه أن الإيمان لم يدخل قلوبها بعدهم، فهم في طور الانتقال والتحول من مرحلة إلى أخرى، رغم أن قولنا عن المرحلة الأولى أنها إسلام لله بشكل عرضي فلا يعني ذلك أن الإسلام لله لا يكون تسليما حقيقيا، ولكن ذلك يأتي بعد الإيمان الحقيقي فيندمجان معا فيكون إسلاما إيمانيا، وقد يحملنا هذا إلى مفهومات تحتاج نظرا كالإسلام لله والإسلام الإيماني لله وما بينهما من فروق بين القولي العرضي الظاهري، والفعلي الجوهري الباطني ثم حقيقة الإسلام وهو اتحاد الفعل بالقول والجوهر بالعرض والظاهر بالباطن، وهذا الإتحاد لا

---

[85] الحجرات

يكون حقيقيا في نظـري إلا عنـد الوصـول للرتبـة الموالية الـتي هـي في اعتقـادي قمـة الإيمـان، وهـي "العلـم بـالله"، فـذلك أحسـن العلـم، وأفضله، وأشـرفه، وذلـك تـاج لا ينالـه إلا قلـة، فيـه الحكمـة الحـق، والصراط الأقوم، والخير الأفضل، والمقام الأجل.....

أحسن العلم

" ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (54)"[86]

بعد ما بينت لك عن القراءة وأصنافها، وعن معان في أول آيات القرآن نزولا، ثم عن الفروق بين الإسلام لله والإيمان بالله ثم اتحادهما معا، وبعد أن قلت لك أن هذا الإتحاد هو بين القول والفعل والظاهر والباطن والجوهر والعرض، فقد آن أن أفسر لك معنى هذا العلم المستنبط من آية جلية ومن مفهوم عقائدي راسخ، ألا وهو علم بالله.

فهذا العلم هو علم العلم بالله، بيان عملي لاستنباط ونظر وتدبر واستلهام...ولكي أمضي نحو جوهر المسألة، فإني أقدم لك تعريفي للعلم بالله بشكل مختزل جلي فأقول:

"العلم بالله هو تحول اليقين القلبي إلى تيقن عقلي واتحادهما في القلب"

هكذا أعرفه ببساطة، وهي بساطة تحمل في طياتها الكثير ، ولقد سبق وذكرت لك ما قصدته مما أسميته "التسليم بالوجود"، وقلت لك أنني أعني به تسليما عرضيا بوجود إله، فذلك ما فهمته ضمن مصطلح "الإسلام لله"، وقلت أن الإسلام لله فيما أراه هو في استقلاليته عن الإيمان مرحلة من الإسلام اللفظي، قول لا يتجاوز اللسان ولا يلج القلب منه نور إيمان، كقول الأعراب في قوله

[86] المائدة

سبحانه: "قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ (14)"[87]

أما في حال اتحاده مع الإيمان، وما أسميته "التسليم للموجد"، فالإسلام لله يصبح إسلام الوجه بإحسان لله سبحانه، وهنا الإيمان بالله الحق متجاوزا الإسلام اللفظي إلى الإسلام الفعلي، فيصبح الإسلام لله منضويا في الإيمان بالله حاملا لمعنى جديد هو روح الإسلام الحق فهو اتحاد ما ظهر قولا بما بطن إيمانا، واتحاد ما كان من عرض الكلام إلى ما أصبح من جوهر الفعل، وهنا مسائل ضمن "علم المصطلح"، وهو علم أعشقه ولي فيه من فضل الله بيان وابتكارات تجد منها في هذا الكتاب.

كل ما ذكرت لك مجاله اللسان والقلب، ولكن العلم بالله له مجال آخر، هو العقل، فهو ليس فقط يقين القلب محبة وتسليما، بل تيقن العقل معرفة وتقييما، والتيقن فوق اليقين، إنه التحقق الفعلي والمنطقي من صحة اليقين القلبي، وما علم اليقين في حقيقته إلا علم تيقن، لأن القين حين يصبح علما، فهو تيقن كامل، أما حين يظل نفحا وإحساسا، فهو قلبي فحسب، وإن كان القلبي شافيا كافيا، فإن العقلي سيكون ضافيا وافيا، وهنا مرتبة للعقل توحده باللب، وحين يرجع الشعاع إلى القلب، يصبح مكان للعلم الفعلي، للعلم بالله، وعليه فإن العلم بالله يمر عبر العقل ولكنه لا يستقر فيه، بل يرجع إلى القلب، فالعقل هو بوابة استنباط ونظر

---

[87] الحجرات

لا أكثر، أما مكمن النور والعلم فهو القلب، القلب المتعقل، وهو في اعتقادي اللب والبصيرة في اتحاد وتماه وفاعلية....

قد يبدو هذا الكلام معقدا جدا، لكن عليك أن ترجع للقرآن، وستجد القلب مقر العلم النهائي، وإن كان هذا العلم حتما عبر من العقل، لكن الإيمان هو من فعّله، لأن العلم حين لا يمر بقلب مؤمن، لا يصل إلى غايته الحقيقية، بل يضل طريقه، ويفتن صاحبه، لأن غاية العلم الحق وقمته..هي العلم بالله...ولا علم بالله إن لم يكن هنالك إيمان به...فإن قال قائل إن هنالك من عرف الله عبر التدبر ثم آمن، فانتقل من الشك إلى الإيمان، قلنا له إن ذلك الشخص حين انطلق من شكه العقلي فوصل إلى معرفة بالله أعقبها إيمان بقلبه، فهو بالغ للمعرفة، وليست المعرفة كالعلم، فالمعارف جملة من المعلومات، والمعرفة ثقافة ومعطيات، أم العلم فإثباتات دقيقة وحجج راسخة وبراهين ثابتة ونظم قوية متماسكة، وهنا على ذلك الذي عرف الله من خلال النظر العقلي التأملي المحض ومن خلال الانطلاق من الاحتمال أو الشك وهو منطق العلوم المادية الحديثة، سوف يمر بالإسلام لله قولا وبالإيمان به قلبا، أي أن عليه أن يؤمن بالله ونبيه وينطق الشهادتين ليثبت معرفته بالله حقا، فكم عارف بالله لكنه يرفض الاعتراف والإقرار ولا يريد أن يسلم أو يعترف بنبوة محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام، فإذا أسلم لله بلسانه ثم آمن به بقلبه وواصل على ذلك بلغ العلم به عقلا ثم غمر العلم قلبه فوصل رتبة العلماء بالله، وهي لعمري مرتبة عظيمة لا ينالهما إلا ذو حظ عظيم وحظوة كبيرة.

العلم بالله فيه كما ترى جوانب من البساطة وجوانب من التعقيد، والآيات التي تحضرني الآن كثيرة جدا، ولو أني أمضي خلف هذا الخيط من الفكر لكان كتابا مفردا، ولكني أكتفي بأمور مختزلة، راجيا من الله التيسير في كتب أخرى، وراجيا لك حسن التدبر والتفكر والمحاورة...

العلم بالله في يقيني أحسن العلم....وهو فضل إلهي عظيم..وفي القرآن الكريم حين تقرؤه ضمن إطار هذا العلم..براهين وشواهد وخزائن علم...فالعلم بالله جوهري في القرآن، وكل علم مكتمل إنما منتهاه العلم بالله، فيتفرع وعي من بلغه ذلك إلى عارف بالله ولا يشترط هنا الإسلام والإيمان، بل قد يقف عند تلك المعرفة، فتكون كل العلوم معارف فقط ما لم تؤسس لعلم إيماني بالله، وقد تنزل حد الفتن، ومعلوم أن عددا كبيرا جدا من الباحثين علماء المادة وصلوا لقناعة بوجود الله، لكنهم لم يقروا إيمانا، ولم يسلّموا قلبا أو يسلموا لسانا، ولم يقرؤوا القرآن تدبرا وتبيانا، ولم يصلوا على محمد تيقنا وعرفانا، بل وقفوا بعقولهم دون أبواب قلوبهم، فكانت معارفهم على ما مكن الله لهم من آليات وحجج وبراهين أضعف من عنادهم وجحودهم، وكان علمهم فتنة لهم، ومعلوم أنك تجد في القرآن ما يثبت أن الكفار على كفرهم وجحودهم كانوا يعرفون الله لكنهم لا يعترفون بوحدانيته فإن اعترفوا لم يقروا بنبوة نبي وبتجدد عهد ونزول ذكر وظهور آية، ولك في كتاب الله متسع لتنظر، وكذلك حال الكثيرين عبر العصور، وفي زماننا يخفون من أسرار العلم والاكتشافات التي تثبت يقينا وجود

خـــالق واحـــد وأن مـــا في القـــرآن حـــق وأن محمـــدا عبـــد الله ورســـوله الكثير والكـــثير محـــاولين تحويـــل المعـــنى وتبـــديل الصـــورة، ولكـــن يقـــيني أن العلم في مساره هـــذا محمـــول رغمـــا عنـــه إلى غايـــة واحـــدة واضـــحة جليـــة سيصـــلها باكتمالـــه لأن وقوفـــه دونهـــا هـــو وقـــوف نقصـــان، ألا وهي الإقرار والتسليم طوعـــا أو كرهـــا..حـــتى يصـــبح الكفـــر نوعـــا مـــن الإعاقة الذهنية..فذلك تحـــدي لله..بـــالعلم بـــالله..عـــبر كـــل مـــا علـــم الله وســـيعلم بـــني الإنســـان مـــا ســـيريهم مـــن آياتـــه في الآفـــاق وفي أنفسهم...فلا مناص مـــن تـــبين الحـــق ولـــو بعـــد حـــين..ولا منـــاص مـــن الاعتراف به..ولـــو بعـــد حـــين أطـــول..فـــذلك مصـــداق قولـــه ســـبحانه في آيـــة ســـأكرر ذكرهـــا لأنهـــا مـــن أســـس هـــذا الكتـــاب: " سَـــنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَـــاقِ وَفِـــي أَنْفُسِـــهِمْ حَتَّـــىٰ يَتَبَـــيَّنَ لَهُـــمْ أَنَّـــهُ الْحَـــقُّ ۗ أَوَلَـــمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (53)"[88]

[88] فصلت

صراط العقل

"هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (51)"[89]

قال الله سبحانه وتعالى في سورة آل عمران: "إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (51)"[90]

هذه الآية رسالة من الله إلى المكلفين من خلقه والموجه لهم كتابه، رسالة على لسان نبيه، إقرار بأن الله رب النبي وربهم، وأن عليهم أن يعبدوه، والعبادة كل عمل وفعل يراد به وجه الله، فاعتقادي فيها أنها شمول وليست فقط ضمن الفرائض والشعائر وإن كانت أساسا، وذلك هو الفهم الذي أرتضيه لقوله سبحانه: "وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (56)"[91]

هذا الإيمان والإقرار بالله سبحانه، ومن ثم عبادته، صراط مستقيم، أو هدي لصراط مستقيم، والصراط الطريق، المنهاج القويم والسبيل الرشيد، ورد ذكره في القرآن خمسا وأربعين مرة، ضمن هذه المعاني، ولعلي أفرد له مبحثا خاصا.

هذا الصراط الإلهي والطريق الرباني مستقيم، والاستقامة مطلب إلهي، ومقصد رحماني، فيها من أطر العلم الكثير، منها العقدي، ومنها الشرائعي، ومنها الذوقي، ومنها الأخلاقي، ولذلك سنرجع

---

[89] آل عمران
[90] آل عمران
[91] الذاريات

للاستقامة كلما كنـا في أحـد أطرهـا العلميـة، ضـمن مصـفوفة منظمـة منسقة متوازنة، ولكن مـا يخـص مـا نحـن فيـه، فـإن اسـتقامة الصـراط تجعله أسرع الطـرق للوصـول، فمعلـوم أن أقـرب طريـق بـين نقطـتين هـو الخـط المسـتقيم، ولكـن السـبل الأخـرى ملتويـة فيهـا متاهـات وتلف، وهـذا مـا تجـده في هـذه الآيـة: "وَأَنَّ هَٰـذَا صِـرَاطِي مُسْـتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَـرَّقَ بِكُـمْ عَـنْ سَـبِيلِهِ ذَٰلِكُـمْ وَصَّـاكُمْ بِـهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (153)"[92]

وهنـا يـأتي السـؤال حـين يتعلـق الأمـر بمـا أسميتـه "صـراط العقـل" كمصطلح مبتكر خاص بعلـم الله، وهـو عـن العلـم، هـل هـو صـراط مستقيم، أم فيـه سـبل، ومـا هـو الصـراط المسـتقيم للعقـل، وإلى أيـن يؤدي..؟؟

طبيعي أنك تدرك من خلال مـا ذكـرت لـك منـذ بدايـة هـذا المبحـث العلمي، أو عبر تفكر إيمـاني ميسـر، أن العلـم بـالله هـو النقطـة الثانيـة للعقـل في انطلاقتـه نحـو الحقيقـة والرقـي، وأن السـبل الـتي لا توصـل إلى ذلك هي إما طرق منقوصة أو فتن.

فالعلم حين ينأى عـن الله يشـقى صـاحبه، وحـين يصـل إلى العلـم بـالله فقـد بلـغ غايـة وجـوده وقمـة مبتغـاه وجـوهر حقيقتـه..فتكـون الاستقامة وسيلة، ويكون الصراط المستقيم منهجا ومنهاجا...

علينا أن نـبين لـك قبـل ذلـك أن العقـل عقـول، وأن العقـول الـتي لا ينيرها قلب مـؤمن، تشـقى كـثيرا، وأن الكفـار كانـت لـديهم عقـول

[92] الأنعام

عطلها الكفر وعمى القلب، وقد كانوا يعرفون الله بتلك العقول، ولكن معارفهم لم ترق إلى العلم بالله، لأن العلم بالله لا يكون إلا لمؤمن، فانظر قوله سبحانه: "وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا (94)"[93]

فعنادهم منعهم من الإيمان، وغرورهم وحسدهم وجحودهم رغم معرفتهم بوجود الله ولكنهم يرفضون أن يبعث الله بشرا رسولا كأن

بل إنهم يرون أن القرآن نزل على رجل فقير، وأن من كبرائهم من هو أولى، كأن لهم الخيرة في ذلك، أو أنهم موكلون بقسمة رحمة الله: "وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (31) أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ (32)"[94]

ولذلك نبه الله نبيه أن زعماء الشرك والكفر لم يكونوا في الحقيقة مكذبين له، بل كانوا جاحدين، فعقولهم تعرف، ولكن قلوبهم تأبى، فالجحود أن ينكر القلب ما عرف العقل من الحق: " قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (33)"[95]

وتجد ذلك في سورة يس وقصة المرسلين حيث قال المكذبون لهم: "قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ (15)"[96]

---

[93] الإسراء
[94] الزخرف
[95] الأنعام
[96] يس

فهم ليس فقط يعرفون الله، بل يعرفون الرحمن، وهي مترلة من المعرفة أخرى، أي معرفة الصفة الربانية وليس فقط الاسم الرباني "الله"، لأن ا"الرحمن" مترلة أعلى من المعرفة، وهذا له سياقه في علمه وأوانه في "البرهان"، ولكن هذه المعرفة يعترف بها الكفار كلهم وهم في جهنم ضمن استباق إلهي لما سيكون ضمن حوار بين خزنة النار وأصحابها في سورة الملك العظيمة: " تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ ۖ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (8) قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ (9) وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (10)"[97]

فهم رغم تلك المعرفة لم يكونوا يسمعون، والسمع بوابة معرفية كبرى، أو يعقلون، أي يفهمون ويستنبطون، وما ذلك إلا لتعطيل الكفر لعقولهم وأسماعهم وأبصارهم فذلك ضياع العقل عن الصراط المستقيم وتيهه في متاهات تودي به وبصاحبه إلى الهلاك والتلف والضياع، أو تحبسه دون عظمة الحق وروعة الإيمان بالله والعلم به، فكم من أهل العلم المادي اليوم يرى كل حين آيات الله ولكنه لا يؤمن ولا يعلم عن ربه شيئا بل يعتقد أن كل ذلك تطور للطبيعة وضرب من المصادفات والطفرات العشوائية!!!

إن صراط العقل المستقيم هو الإيمان بالله، ونقطة الانطلاق الأولى هي الإسلام لله، أما نقطة الوصول فهي العلم بالله، ضمن منهج

---

[97] الملك

من التـــدبر الإيمـــاني والتفكـــر العقـــلاني والنظـــر العميـــق وحســـن التأمـــل في كل شـــيء، وحـــين يبلـــغ العقـــل مهتـــديا بنـــور القلـــب بوابـــة العلـــم بالله، ثم ســـلك فيهـــا مســـلكه واســـتيقن الحـــق ولامســـه وفهمـــه، اتحـــد يقين القلب بتيقن العقل، وصـــار ذلـــك مقامـــا مـــن الإيمـــان العلمـــي بـــالله سبحانه، فالعلم بالله كمـــا قلـــت لـــك مقـــام للإيمـــان ولـــيس تجـــاوزا لـــه، وهنا يكـــون القـــرار في القلـــب، حيـــث يســـتقر الـــيقين، ويكـــون العقـــل قد بلغ من الترقـــي مـــا أهلـــه للتلقـــي، وهنـــا بوابـــات للعلـــم لا تحصـــى، وتيقظ للروح لا يخطـــر ببـــال مـــن لم يجربـــه، وهنـــا تكـــون القـــراءة الـــتي تحـــدثنا عنـــها في مســـتهل هـــذا العلـــم ضـــمن بعـــض معـــاني أول آيـــات القـــرآن قـــد وصـــلت إلى قمـــة مبتغاهـــا، وجـــوهر جـــواهر طِلبتـــها، وإن لـــذلك منـــهجا وأطـــرا بينـــها القـــرآن العظـــيم، ولا تحتـــاج إلا لتـــدبر يربط بين الآيات ويستنبط منـــها ويـــبني عليهـــا..فـــإلى بعـــض مـــن الأطـــر المنهجية للعلم بالله...

الأطر المنهجية

" وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (115)"[98]

ليس العلم بالله مطلبا إعجازيا ومقصدا تعجيزيا، فكل ما في الكون يحوي دروسا للعلم بالله، وفي ما في الذات، وفي كل وِجْهة وَجِهة ومكان، فتأمل قوله سبحانه: " وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (115)"[99]
فالله حقيقي قلبا وعقلا، فكل قلب لا يؤمن بذلك قلب معتلّ أو مريض، وكل عقل لا يصل إلى حقيقة ذلك عقل قاصر منقوص مهما علِم ومهما ظنّ انه يعلم.

العلم بالله مثبت جلي لأن آيات الله التي تخاطب الإنسان فيها قسم مشاهد واضح، والقسم الباطني يمكن تمثله تصوريا وربطه والوصول للعلم بالله من خلاله، وحجج الله كما سأبين في علم الحجة بينة وبراهينه ثابتة، ولكن لابد من قلب سليم وعقل متدبر ن ولابد كذلك حسب رأيي من أطر أنا على يقين أن تدبري الآن فيها والمسميات التي أطلقها عليها ما هو إلا جهد إنساني نسبي لما

[98] البقرة
[99] البقرة

هـــو موجـــود في أهـــل الإيمـــان والعلمـــاء بـــالله عـــبر الأزمنـــة وفـــق مسميات وفهوم أخرى نعرف منها ما نعرف ونجهل منها ما نجهل.

تنقســـم الأطـــر المنهجيـــة للعلـــم بـــالله وفـــق اعتقـــادي إلى فـــروع ثلاثـــة كبرى، هي الأطر المرحلية، الأطر العلمية، والأطر الاستقرائية.

***1* الأطـــر المرحليـــة: قلنـــا أن العلـــم بـــالله مقـــام للإيمـــان وقمـــة مـــن قممـــه، ولـــئن انفصـــل فهـــو موصـــول، في حـــين أن الإســـلام لله مرحلـــة يقع الانتقـــال منـــها كليـــا حـــين يـــتم الإيمـــان فيتحـــد الإســـلام لله مـــع الإيمان به ليكون تسليما كليا، ولعلنا نرى نموذجا هو هذا:**



إذا فالمســـلم باللســـان مســـلم بوجـــود إلـــه، نطـــق الشـــهادتين فقـــال بلسانه "لا إلـــه إلا الله..محمـــد رســـول الله"، وكـــل ذلـــك بلســـانه فقـــط، فهو مقـــول لفظـــي فيـــه اعتـــراف بألوهيـــة الله ونبـــوة نبيـــه محمـــد عليـــه الصـــلاة والســـلام، وهـــو تســـليم بـــالوجود بشـــكل عرضـــي، ظـــاهري خارجي فقط.

أما المؤمن بهو بالضرورة مسلم، ولكن ما نطق به لسانه قد آمن به قلبه، فهو في حال الإسلام بالقلب قد يرتد عنه وقد يكفر بعد ذلك أو ينافق، وهذا موجود بنص القرآن الكريم وهو في تاريخ الإسلام مدعم بشواهد كثيرة زمن النبي عليه الصلاة والسلام وبعده، والله سبحانه حين قال عن الأعراب آيته: " قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ (14)"[100]

فهو يعلم حقيقتهم ويبينها مستثنيا معمما الحكم على الأغلبية منهم أهل الإيمان فقال سبحانه: " الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (97) وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (98) وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ ۚ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (99)"[101]

فالإيمان الحقيقي نقلة كلية بعد الإسلام اللساني لله إلى التسليم القلبي الفعلي الكلي الجوهري والإيمان الراسخ الثابت الذي لا رجوع عنه، لأن الإيمان إن كان مجرد قشر سطحي في القلب أمكن للنفاق والكفر الموغل في القلوب المريضة أن يخمد نوره لتطغى الظلمات فيه ومن ذلك قوله سبحانه: " كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ

---

[100] الحجرات
[101] التوبة

قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (86)"[102]

ولذلك كان الحرص على التطبيق الفعلي للإيمان، وتفعيله بشكل متبصر، كي لا يكون التفعيل مجرد مظهر، لأن التفعيل الحقيقي إظهار للإيمان لا سجنه في مجرد مظهر لا غير.

العالم بالله مسلم مؤمن، ومن كان غير ذلك ولديه معلومات عقلية عن الله كان صاحب معرفة بالله قد تكون حجة عليه إن جحد كما سبق البيان، وقد تكون طريقا له كي يسلم ويؤمن ثم يمضي في صراط العقل ضمن استقامة يقينية مؤمنة ليصل إلى العلم بالله، وهنا العالم بالله مسلم مؤمن مضى عقله في تدبر وتأمل متعينا باليقين القلبي الإيماني ليرجع متيقنا بذلك العلم إلى القلب فيتحدا معا ليكونا لبا واعيا وبصيرة مستنيرة، فذلك وجه لتعريفي للعلم بالله حين قلت: "العلم بالله هو تحول اليقين القلبي إلى تيقن عقلي واتحادهما في القلب"

هنا تحتاج لعلم الربط لتجد الارتباط الوثيق بين الإسلام والإيمان والعلم بالله، ولتبصر كيفيات الترابط والاتصال بين التطورات المرحلية ومعنى وقيمة كل مرحلة ثم التطور التصاعدي والتماهي والانصهار.

2 الأطر العلمية: تخضع الأطر العلمية للعلم بالله في نظري لما ذكرته ضمن المقدمة في العلم والقرآن وما أسميته بعلوم التكوين

---

[102] آل عمران

وقسميها وفق قوله تعالى: " سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (53)"[103]

وأيضا لما بينته في مستهل هذا المبحث ضمن تدبرنا في أول آيات القرآن عن قسمي الخلق العام والخاص.

فالتدبر والنظر العلمي المنهج، مع توفر إيمان قلبي فعلي، هو الإطار العلمي للعلم بالله، وضمنه أطر كثيرة، وكلما توفرت إمكانات النظر العلمي والتيقن كان العلم أكبر وأدق، وهنا لابد من فهم علم الكشف الذي سأبين نفحا منه في هذا الكتاب، لأن هذا الباب هو الأكثر عمقا وعظمة، وعليه فالأمر منقسم إلى قسمين كبيرين هما العلم اللدني بالله والعلم الاستنباطي بالله وهو ما سأبينه ضمن الأطر الاستقرائية.

عموما، فالتدبر في الآفاق والأنفس، في الكون والإنسان، في ما خلق الله سبحانه، مع إيمان راسخ، هو السبيل للعلم بالله، والعقل كلما نظر وتدبر كلما ازداد تحيرا في عظمة الله، وكلما ازداد علما بالله، كلما وجد أنه لم يعلم إلا القليل، فالعلم بالله لا حد له، ولكن يكفي أن يلامس المؤمن منه نصيبا حتى يتحد اليقين القلبي بالتيقن العقلي ويظل الأمر في ازدياد مطرد قلبا وعقلا، يقينا وتيقن،ا إيمانا وعلما إلى أبد الآبدين.

---

[103] فصلت

3 الأطـــر الاســـتقرائية: قـــال الله لنبيــــه اقـــرأ في أول كلمـــة وحــــي انزلـــت عليـــه، وهـــذه القـــراءة فيهـــا اســـتقراء، والاســـتقراء فنـــون وصنوف، فمنـــه التمثلـــي، فتكـــون قـــراءة بالـــذهن للمعـــنى وللمتصـــور، ومنـــها الاســـتقراء المشـــهدي، فتكـــون قـــراءة بالعقـــل عـــبر الحـــواس للمرئـــي والمشـــاهد، وضـــمن هـــذا العلـــم، فإنـــا مـــا أسميتـــه بـــالأطر الاستقرائية ينقسم إلى بـــابين كـــبيرين: همـــا العلـــم اللـــدني بـــالله، والعلـــم الاستنباطي بالله وهو ما سأبينه ضمن الأطر الاستقرائية.

أ العلم اللدني بـــالله: لـــيس مـــن مشـــمولات العقـــل عامـــة، ولـــيس ممـــا كان من امر الله للمـــؤمنين، بـــل هـــو فضـــل مـــن الله يؤتيـــه مـــن يشـــاء، وهو مما يكـــون بـــالفيض والتجلـــي والكشـــف، وســـوف يكـــون لي تأمـــل لكل ذلك في علومـــه الخاصـــة، ولكـــن لابـــد أن يعلـــم كـــل ذي عقـــل أن عقله لا يرقـــى إلى هـــؤلاء، وعليـــه ألا يقـــيس علمهـــم بعلمـــه، وعقـــولهم بعقله، لأنه إن فعل لم يظفر إلا بالشك أو بالرَّهَق.

الله ســـبحانه مـــنح هـــذه الهبـــة لمـــن اختـــارهم، ليختـــزل لهـــم المســـافة، وليـــنير عقـــولهم وقلـــوبهم بقـــوة ورســـوخ وثبـــات، حـــتى يبلغـــوا قمـــم العلم بالله والتيقن بـــه، ولا يمكـــن لعقـــل بشـــري أن يتصـــور كنـــه ذلـــك، ولكن له أن يقـــف متـــأملا وفـــق حـــدوده لقولـــه ســـبحانه علـــى ســـبيل المثال: وَكَـــذَٰلِكَ نُـــرِي إِبْـــرَاهِيمَ مَلَكُـــوتَ السَّـــمَاوَاتِ وَالْـــأَرْضِ وَلِيَكُـــونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (75)"[104]

[104] الأنعام

أو قوله سبحانه: " سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (1)"[105]

فذلك كشف رباني وتجلّ إلهي، وهؤلاء هم أنبياء الله ورسله وخاصة خلقه الذين اجتباهم على علم واختارهم على بينة وفضلهم لحكمة وعلمهم من لدنه علما....ولنا عودات أُخر...

ب العلم الاستنباطي بالله: الاستنباط علم وأساس أرجع إليه ضمن علم الفقه، ولكن ما أعنيه بالعلم الاستنباطي بالله، هو مقصدي الأساس من بحثي كله ضمن العلم بالله، وهو ما يهم كل مؤمن، فليس هم المؤمن الكشوفات الربانية التي كم من مريد للتصوف أهلك نفسه بطلبها وادعائها، ولكن مشغله عليه أن يكون ما يمكن لعقله أن يستقرئه وأن يتدبره، متسلحا بكتاب الله، وبإيمانه القلبي الواثق، لينظر في الكون وفي ذاته حتى يظفر بعلم بالله يجعل عقله متيقنا وقلبه أشد يقينا.

إنه استقراء للكون والذات، للآفاق والأنفس، للخلق العام والخلق الخاص، واستنباط لأسس وقواعد وحقائق، مع ربط بين كل ذلك والله سبحانه، وهنا خطورة علم الربط الإيماني، ربط يوصل لفهم الربط الرباني، وكل ما سيكشفه الله بالرؤية العلمية للإنسان ضمن الآفاق والأنفس آيات ربانية موصلة للحق متى نضجت واكتملت وأقرت بالحق بعد معرفته، وهنا ارجع مجددا

[105] الإسراء

لقوله سبحانه: " سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (53)"[106]

هذا الاستنباط فيه الاستقراء المشهدي للمشاهد مما ذكرنا، سواء بالعين المجردة، أو بالمرقب والمرصد والمجهر، وهو تمكين من الله لحكمة قل من أدركها، وهنا دور المؤمنين أهل هذا الزمان في الاستنباط وإنارة الطريق وتقريب مفهوم العلم بالله عبر التطور العلمي وعبر الإمكانات العلمية الغير مسبوقة لدى الإنسان على الأقل وفق ما نعلم، والذي يحاول جامدي العقول نفيه ونسفه.

وفيه أيضا (الاستنباط) التصوري وهو باب تعقلي منطقي لما لا يمكن رؤيته بكل وسائل المشاهدة المذكورة، وعليه يكون عالم المعنى وعالم الغيب والكثير مما في كتاب الله ومما يخص الله سبحانه ولكن التمثل المنطقي حين يربط بين المشاهد بالبصر والمشاهد بالبصيرة يرسم للعقل مجالا أرحب للعلم بالله سبحانه.

هذا الربط بين المرئي واللامرئي، ضمن تفكر إيماني وتدبر عقلي واستقراء واستنباط تجده في آيات كثيرة من القرآن الكريم، كقوله سبحانه: " الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (**191**)"[107]

---

[106] فصلت

[107] آل عمران

فذلك مقام الخاصة من أهل الإيمان الذاكرين لله والمؤمنين به، وفي القرآن آيات كثيرة مبيِّنة موضِّحة مؤطِّرة منها قوله تعالى: "اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا (12)"[108]

وإن التدبر العقلي المشهدي المؤمن في كل شيء يوصل حتما عبر الربط اللبيب والتدبر الفطن إلى علم بالله يمنح العلم بكل صنوفه نفحة وروحا وروعة وبهجة ونفعا وخير وفضلا عظيما، فلعلك واجد في هاتين الآيتين من سورة فاطر التين سأرجع إليهما في أطر أخرى ما يحرك فيك خلايا عقلك وكوامن روحك وأشواق قلبك لتمضي في العلم بالله ولتعلم من هم العلماء الحقيقيون الذين يخشون ربهم حق خشيته لأنهم عرفوه وتيقنوا منه وعلموا مما علمهم عنه ضمن ما رأوه واستنبطوه من خلقه، فهذا ختام هذا العلم، فأقرأ وتدبر: " أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (27) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (28)"[109]

---

[108] الطلاق
[109] فاطر

علم الأسس

"كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ﴿261﴾"[110]

110 البقرة

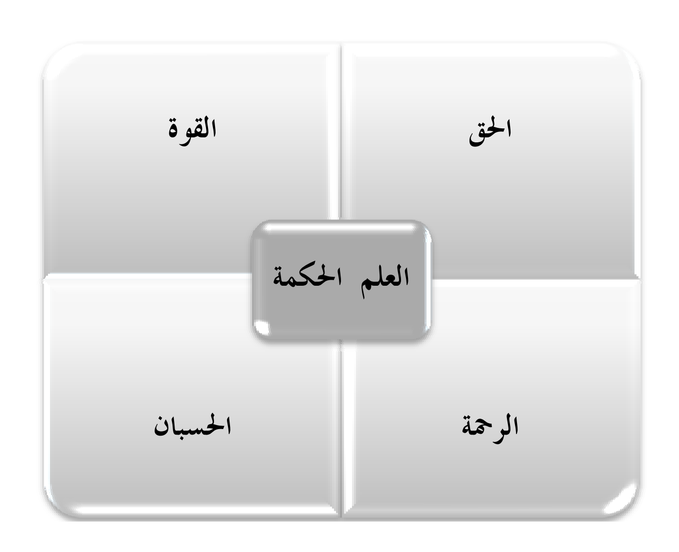
ضمن سفرنا في تأملات في العلم والقرآن، لابد من نظرة مختصرة لرؤيتي لأسس الملك الإلهي وفق اعتقادي واستنباطي وتأملي لكتاب الله، والحقيقة أن تدبري لهذه الأسس سابق لتأليف البرهان بسنوات طويلة، بل أجزم أنها بدايات تدبري لكتاب الله التي تطورت لتصل إلى هذا المصنّف، وإن العلم بالله في نظري سيزداد رسوخا عبر فهم هذه الأسس، كما أن علم الربط محوري جدا، وهي إن شئت مصفوفة عمودية فيها ترتيب لأسس موجودة ولكني نسقتها وفق رؤيتي لها وليس الترتيب تفاضلا ولكنه تناسق ضمن دوائر متعامدة، وهو استنباط يستحق النظر العميق والمحاورة الرصينة ككل ما في الكتاب، ويمكن البناء عليه والتوسع فيه أكثر من هذا.

والأسس حسب اعتقادي نظم بنى الله عليها ملكه، وهي مبينة لنظمه الكونية الغيبية والمشاهدة وأسرار صنعه: "صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿88﴾"[111]

والخير فيها، والشر في انعدامها، وهو بوتقات تحوي في داخلها علوما كثيرة، كسنابل سبع في كل سنبلة ما شاء الله، وهذه الأسس هي: العلم، الحكمة، الحق، القوة، العدل، الرحمة، والحسبان، وهي دوائر معرفية تتسع انطلاقا من الأولى ضمن التنسيق التالي:

---

111 النمل



***العلم ثابت، الحكمة مثبتة، الحق ركيزة، القوة ضمان، العدل قانون، الرحمة فضل، والحسبان تنظيم دقيق.**

طبيعي أننا نتكلم في الثبات العلمي للعلم الإلهي، لأن العلم الممنوح للبشر ليس ثابتا من يُبث تطوره المستمر ومن حيث أن الإنسان مهما علم فهو لم يعلم إلا القليل، وكذلك حين يقع القياس على العلوم المادية فهي تبنى على أنقاض بعضها وليست ثابتة، وكل هذا غير العلم الإلهي وما تعلق به من علوم لدنية ومن علوم راسخة.

أما ثبوت الحكمة الإلهية فأمر جلي لكل مؤمن ومتدبر وعالم بالله، وليس الأمر مجال جدل إلا لمن كان في عقله خلل أو في قلبه مرض.

والحق هنا مجال إلهي أيضا، تنضوي ضمنه حقائق لا تبديل لها ولا نسبية فيها وهي الحقائق الإلهية المطلقة.

أما القوة فهي ميدان الجبروت الإلهي الذي لا يقهر، قوة قاهرة حكيمة متينة دائمة غالبة.

والرحمة نور الله اللطيف المتخلل في كل شيء، وهي بوابة نعمه وصبره ورأفته وإقليد خيره ومقلاد فضله.

أما الحسبان فموازين ومواقيت وحسابات وإحصاء وإحاطة لا يعزب فيها شيء عن رب كل شيء.

* لا خير في: علم بلا حكمة، حكمة من دون حق، حق من دون قوة، قوة من دون عدل، عدل من غير رحمة، ورحمة بلا حسبان.

*العلم بلا حكمة ظن: "وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿36﴾"[112]

*الحكمة من دون حق باطل: " أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿44﴾"[113]

*الحق من دون قوة ضعف، مهانة ووهن: "وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿139﴾" [114]

*القوة من دون عدل ظلم وعلو في الأرض وتجبر: "وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿130﴾"[115]

---

112 يونس

113 البقرة

114 آل عمران

115 الشعراء

*العدل من دون رحمة فتنة: "إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ﴿155﴾"[116].

إذ لا ينجو عامل بعمله إلا أن يُرحم.

*الرحمة من دون حسبان إسراف و تبذير: "إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿141﴾"[117]

فوجود هذه الأسس مجتمعة لازم، ونقصان أحدها يحدث خللا في الملكوت الإلهي، تعالى الله عن ذلك، وإنك حين تتأمل الأسس تجد منطقا في كل ما بينت لك، ورغم أن كل أساس موجود سلفا ولكم من تبيان عنه وبيان فيه، فإن هذا الترتيب وهذا الفهم استنباط جديد، ضمن ربط منطقي مبتكر، وأما التعريف المختزل للأسس وفق هذا الاستنباط فهو الآتي:

*العلم: هو النظام الذي يقوم عليه خلق الله جل جلاله.

*الحكمة: هي سرّ النظام، ركيزة العلم، وهي الأسباب الخفية والمعاني الباطنية، وهي أيضا البصيرة النافذة.

*الحق: هو ركيزة النظام، فملكوت الله سبحانه يقوم على الحق ويرتكز عليه، فهو دعامة للحكمة ومبرر الوجود كله.

*القوة: هي حافظ النظام، فالله يحكم في كل ما خلق حكم قوي مقتدر، فالحق من دون قوة مستضعف مسلوب والقوة تحفظ نظم الخلق، وهي قوة موجودة في الكون متمظهرة بشكل مستمر يثبت

116 الأعراف

117 الأنعام

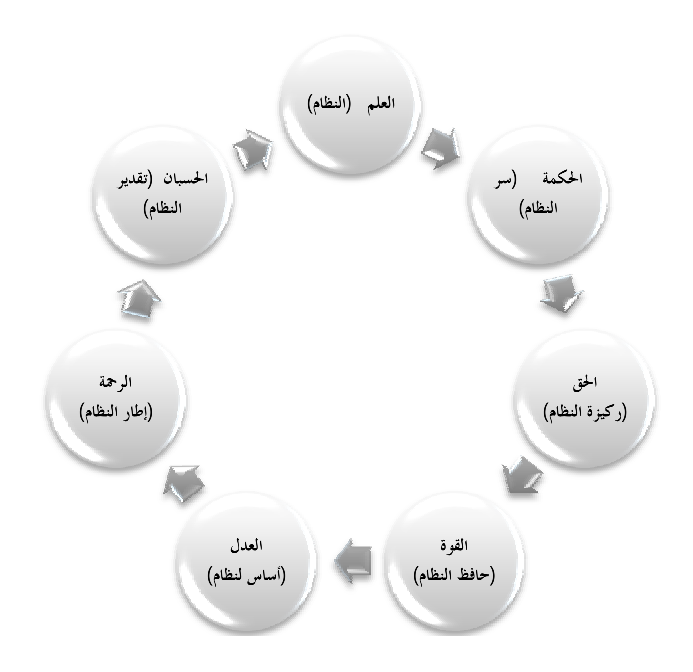
قوة الله، وبـــالقوة أمـــر صـــفوته، أن يكونـــوا أقويـــاء في أخـــذ الحـــق مـــن قبضة الباطل.

*العدل: هـــو أســـاس النظـــام، فقـــوة بـــلا عـــدل تـــزول ســـريعا، لـــذلك فالله أقام ملكه وأسسه على العدل، وعدله شامل كامل.

فالعـــدل ركيـــزة ثابتـــة منـــذ خلـــق الله الســـماوات والأرض إلى أبـــد الآبدين.

*الرحمـــة إطـــار النظـــام، فكـــل شـــيء ينـــدرج في إطـــار رحمـــة الله الـــتي وسعت كل شيء، فهي رحمة متخللة محيطة لطيفة.

*الحسبان: هـــو تقـــدير النظـــام ،حســـاباته الـــتي لا تخطـــيء وأعـــداد كـــل شـــيء، أقـــداره، مواقيتـــه، ظـــاهره و باطنـــه ، مشـــاهده وغيبيّـــه ، وهـــو أساس معقد متشعب لا يحيط به إلا الله سبحانه وتعالى .



هذه هي الأسس السبعة لملكوت الله كما أراها وكما استنبطتها، وليس هنالك تفاضل بل تكامل، وهي دوائر ضمن دوائر أشسعها دائرة الحسبان، وسوف أبين باختصار كل أساس بشكل مفرد مع الآيات الداعمة في انتظار توسع أكبر لأن هذا العلم يستحق كتابا مفردا، وهكذا حالي أمام كل علم من علوم هذا الكتاب.

العلم

"وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿114﴾"[118]

العلــم تــاج العقــلاء، وبوابــة الحكمــة، وصــراط الله لله، والعلــم علــوم وعوالم، حيث المــد وحيــث لا حــد، نظــام لله ســبحانه العلــيم الحكــيم، منه العلــم منحــا ونفحــا، وأحيانــا فتنــة، ولــه العلــم المطلــق الكامــل، فــالعلم بــلا منتــهى، وفي القــرآن الكــريم بــراهين وأدلــة، فالملائكــة وعلمهم الذي علمهــم الله إيــاه، لم يجــدوا مــا يقولــون يــوم ســألهم عــن علم الأسماء ودعاهم لينبئــوه إلا أن قــالوا: "سُــبْحَانَكَ لَــا عِلْــمَ لَنَــا إِلَّــا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿32﴾"[119]

والعلــم أول الأســس لمملكــة الله ســبحانه، وهــو علــيم بكــل خباياهــا وخفاياها: " هُوَ الَّذِي خَلَــقَ لَكُــمْ مَــا فِــي الْــأَرْضِ جَمِيعًــا ثُــمَّ اسْــتَوَىٰ إِلَــى السَّــمَاءِ فَسَــوَّاهُنَّ سَــبْعَ سَــمَاوَاتٍ ۚ وَهُــوَ بِكُــلِّ شَــيْءٍ عَلِــيمٌ (29)"[120]

وهو سبحانه عــلام غيــب الســموات والأرض: " قَــالَ أَلَــمْ أَقُــلْ لَكُــمْ إِنِّي أَعْلَــمُ غَيْــبَ السَّــمَاوَاتِ وَالْــأَرْضِ وَأَعْلَــمُ مَــا تُبْــدُونَ وَمَــا كُنْــتُمْ تَكْتُمُونَ (33)"[121]

---

[118] طه
[119] البقرة
[120] البقرة
[121] البقرة

وهو سبحانه يعلم السر والنجوى وهو علام الغيوب: " أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (78)"[122]

وهو العليم بما كان وما هو كائن وما سيكون: " إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ (47)"[123]

والعلم مقامات، فأعظم العلم علم الله، وأحسن العلمِ العلمُ بالله، وأنفع العلم علم ما شرع الله، وأبقى العلم علم لا إله إلا الله، وأرسخ العلم ما كان من لدن الله، وأشرف العلم ما تلقى رسل الله، وتاج العلم ما عُلّم محمد بن عبد الله.

وإن ما علّم الله للخلق محاط بأطر، ومرتبط بشرط، مسبب لغاية، ومحدد بحدود، منسق بنظم، منضبط بميزان، وموصول بوصية.

فأما الإطار فهو أن لا علم يؤتاه مخلوق وخاصة بنو الإنسان إلا بمشيئة الله، وتلك المشيئة مشيئة حكمة، وبرهان ذلك قوله سبحانه ضمن أعظم آيات القرآن (آية الكرسي): " وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ (255)"[124]

وأما الشرط فهو تقوى الله التي بها يزكو العلم وييسر السبيل إليه وهي شرف العالم وتاج العامل وزكاة العابد وصلاح السالك

---

[122] التوبة
[123] فصلت
[124] البقرة

وفضل أهل الفضـــل بينـــهم: "وَاتَّقُـــوا اللَّـــهَ وَيُعَلِّمُكُـــمُ اللَّـــهُ وَاللَّـــهُ بِكُـــلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (282)"[125]

وأمــا الغايــة فهــي العلــم بــالله والعلــم بجليــل مقامــه وعظــيم علمــه، ومطلق قدرتــه، ومقــدّس صــفاته: " لِتَعْلَمُــوا أَنَّ اللَّــهَ عَلَــىٰ كُــلِّ شَــيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا (12)"[126]

وأما الحد فقلة ما أوتي هــؤلاء وهــؤلاء، فقليــل مــا يعلمــه البشــر مهمــا علِموا، وهو عــام لكــل الخلــق خــاص أكثــر بــبني آدم، إذ العلــم غــير محــدود، دوائــر في دواخلــها دوائــر، وكلمــا اخترقــت كونــا وجــدت فوقه كونا آخــر، ولــذلك قــال العلــيم الحكــيم ســبحانه: "وَمَــا أُوتِيــتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿85﴾"[127]

وأمــا التنســيق فهــو أن العلــم تراتــب وتفاضــل، فلــيس كــل العــالِمين على درجــة مــن العلــم واحــدة، بــل نسّــق الله ونظّــم منحــه العلميــة بينهم ضمن مقامات ودرجــات لحكمــة وغايــة هــو أعلــم بهــا : " نَرْفَــعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (76)"[128]

وليس أقل مــن أن تعلــم أن مــن حِكــم ذلــك نســف للغــرور بــالعلم لأنه أهلك أمما وفــتن الكــثيرين، فــذلك شــأن إبلــيس الــذي ظــن أنــه أعلم بحكمة الله حــين افــتتن بعلمــه أن النــار خــير مــن الطــين، فعصــى ربه ولم يكــن مــن الســاجدين، فرجمــه الله وكــان مــن المبلســين: " قَــالَ

[125] البقرة
[126] الطلاق
[127] الإسراء
[128] يوسف

مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ **(12)**"[129]

وكذلك قارون الذي غره من العلم ما فتنه، ومن المال ما سلبه يقينه وأفقر قلبه وروحه فأهلكه، وذلك حال المجرمين: " قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ **(78)**"[130]

وأما الميزان فهو أن أهل العلم ليسو كسواهم من الناس، بل هم قانتون لله لما علموه عن الله: " أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (9)"[131]

فأهل العلم مقربون من ربهم، يخشونه حقا لأنهم عرفوه حقا، وعلموا عنه وبه إيمانا وصدقا، وتيقنا ورسوخا ونظرا مُحقا: "إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ **(28)**"[132]

فهم أهل الله وخاصته، وهو المخلصون له المفضلون عنده، منهم الرسول والنبي، ومنهم المخلَص والولي، ومنهم مما علِم الله سبحانه وفضّل عنده، كذلك العبد الصالح الذي يسمى خضرا، ولشرف ما علمه الله كان من قاصديه للعلم كليم الله ونبيه: " فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا **(65)**

[129] الأعراف
[130] القصص
[131] الزمر
[132] فاطر

قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (66)"[133]

ولنا في ذلك سفر ضمن علم السيمياء...

وأما الوصية فهي من الله لنبيه ومن ثَمّ لكل طالب للعلم وسالك في سبله، وهي عدم الاكتفاء من العلم مطلقا، والبحث دوما عن زيادة خير منه وإضافة خير فيه، فذلك شأن من كان أول أمر من الله له وأول كلمة تلقاها من ربه هي كلمة "اقرأ" وأول آية نزلت عليه هي: " اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1)"[134]

والرحمن سبحانه لم يورد فعل الأمر بالاستزادة إلا في سياق واحد: "وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿114﴾"[135]

فتلك وصية الرحمن لنبيه في سورة طه سيد الأنبياء، ثم وصيته لكل أهل محبته من العلماء، لأنك كلما استزدت علما وأنت على بصيرة وهدى وإيمان، كلما ازددت من ربك قربا وللحقيقة فهما، وللبشرية نفعا.

هذا مختزل ما أحببت أن أقوله عن العلم كما أراه وكما أدركه وكما استقرأته في القرآن العظيم، فهو أساس أول ونظام محكم وعالم متكامل.....

علم الأسس

---

[133] الكهف
[134] العلق
[135] طه

الحكمة

" يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ (269)"[136]

قلت لك أن الحكمة في نظري هي سر النظام، أساس ثان للملكوت الإلهي، وليس كونها الأساس الثاني أنها أقل فضلا وشرفا من العلم، لأن الترتيب كما قلت تكاملي وليس تفاضليا.

الحكمة سر العلم، روحه الخفي وجوهره المحكم، وهي حُكم وإحكام وأحكام مُحكمة ومَحكمة لكل علم وفكر ورأي وعمل وفعل، فإن كان حكيما فقد بلغ الإصابة ونال المرام، وإن جانب الحكمة كان خبطا بلا انتظام.

الله سبحانه وتعالى حكَم حكيم، أنزل في محكم التنزيل من أفضل الحكمة وأرقاها، وجعل لنبيه منها نصيبا وفضلا، فربط بين علم الكتاب وعلم الحكمة والعلم اللدني لأن كل ذلك مقام تلق عظيم أساسه الحكمة التي تفسر الكتاب وتبين أحكامه وحكمه وتستنبط العلم وتيسر فهمه، فكأنك بالحكمة روح العلم، ومنهاج للكتاب: "وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا (113)"[137]

فهذا مجال للحكمة اللدنية، وضمنها ما أوتاه النبي عليه الصلاة والسلام من جوامع الكلم، وكذلك ما أوتاه نبي الله داوود من

---

[136] البقرة
[137] النساء

الحكمة في ارتباطها بفصل الخطاب: " وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ (20)"[138]

فللحكمة علاقة بشؤون الملك وسياسة الحكم عامة، ولها ارتباط وثيق بالدعوة لله ونشرها، وهذا أمر إن أغفله حاكم أو داع ضاع حكمه وخابت دعوته، ولذلك أمر الله نبيه باستخدام الحكمة والموعظة الحسنة في الدعوة إلى سبيل ربه: " ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ (125)"[139]

فذلك درس رباني عظيم فيه روابط بتزكية الأخلاق ومناهج التربية ومقومات الدعوة لله، وفي تطبيقاتها العلمية المنهجية، والعملية التطبيقية.

والحكمة المحمدية بحر لجي نهل منه أصحابه وظلت نورا في عقول صالحي أمته، فذلك من فضل الله على المؤمنين: " لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (164)"[140]

وذلك تحقق دعوة خليل الله إبراهيم عليه السلام: "رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (129)"[141]

---

[138] ص
[139] النحل
[140] آل عمران
[141] البقرة

والحكمة نور رباني يهدي به الله من ارتضى، ويهدي إليه الله من أحب، منها ما يؤتي الله، ومنها ما يعلّم رسل الله، والحكمة المؤتاة روح لا اكتساب، أما الحكمة المهداة فهي علم وكتاب، ولقد رهن هبة الحكمة بمشيئته كما رهن هبة العلم بمشيئته، فلا يحاط من علمه بشيء إلا بمشيئة وحكمة، ولا تؤتى الحكمة إلا منه بمشيئة وحكمة: "يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (269)"[142]

فهي خير وفضل ونور وبصيرة، ترشد العقل، وتقنن الفكر، وتضبط السلوك، وتمنهج العمل، وهي فقه للأمور وفهم ودقة نظر، وسعة اطلاع ومقدرة على الاستنباط والتحليل والاستقراء والتقصي، وهي على ذلك منطق صارم ونظر ثاقب وبيان حصيف، كما أنها حسن تدبير ورصانة تفكير وقوة صواب وفصل خطاب.

ولعل من أهم قضايا الفقه مسألة الحكمة والإحكام، فالإحكام حكمة الحكم، وبين الأحكام والإحكام تكون حكمة المتفقه في الدين ومقدرته الاستنباطية، وهو موضوع يطول شرحه، لعلنا نلامس منه بعضا في علم الفقه.

ولأن القرآن كلام رب حكيم، وكتاب حكمة عظيم، فقد أقسم به الله في مستهل سورة يس: " يس (1) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (2)"[143]

[142] البقرة

[143] يس

إذ فيه كنوز الحكمة، ونفائسها، وهو حكيم في أوجه يصعب إحصاؤها ورصدها واستقصاؤها، ولكن لكل متدبر من ذلك نفح ونصيب، ولكل عقل نير منه خير وموعظة وعبر.

وفي القرآن ذكر لحكيم رباني منحه الله من خزائن الحكمة ما شاء ولقنه وفهّمه فقال عنه: " وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (12)"[144]

فالإيمان بالله رأس الحكمة، وشكر الله عين الحكمة، والحكمة مواعظ مختزلة فيها عصارة دروس الحياة، وخلاصة رقائق الفكر ودقائق الحجج، وفي سورة لقمان بيان لحكم عظيمة، ومواعظ خالدة، كما في وصايا سورة الإسراء، وفي كل القرآن ذكر حكيم يذكر الإنسان بقواعد الحكمة ومعانيها وروابطها بالعقيدة والعبادات والأخلاق... وبكل شيء راق: " ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ (58)"[145]

وإن مقتضيات الحكمة الإلهية في تدبير شؤون ملكه وأمور عباده قد تتناقض ظاهريا مع ما يعتقده الإنسان بقصور عقله حكمة، فذلك من حِكم الباطن الغالبة لحِكم الظاهر، وفيه مجال للتسليم لحكمة الله والحياة ميدان إثبات لذلك وكذلك التاريخ، فمن ذلك قوله سبحانه في آية سأذكرها في الكلام عن القوة أيضا: "وَعَسَىٰ

---

[144] لقمان

[145] آل عمران

أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (216)"[146]

والحكمة فيها علم عظيم، علم الحكمة، وأحد تيجانه علم السيمياء وفق تصوري له كما سأبينه، وحين كان اللقاء بين أحد كبار علماء الحكمة الربانية، ونبي لله كليم، كانت الغلبة للحكمة اللدنية على حكمة الشرع الظاهر فذلك فصل بين حكمة الظاهر وحكمة الباطن، مما يحتاج تأويلا وما يصعب الصبر عليه من قبل العقل بظاهر أحكامه ولا يمكن فهمه إلا من قبل من آتاه الله سره أو بعد تأويله والقياس ممتد جدا ولكن جوهره في سورة الكهف وقصة موسى والخضر: "قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا **(67)** وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا **(68)**"[147]

ولسوف أرجع تفصيلا ضمن علم السيمياء وتأملاتي في حقيقة معناه ومحتوى القصة القرآنية العظيمة.

وإن الله سبحانه بنى ملكه على الحكمة، وبناه بحكمة وإحكام عظيم، لا عبث فيه ولا لهو، ولا إفراط ولا تفريط، ولا نقصان ولا فطور: "الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ۖ مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِنْ تَفَاوُتٍ ۖ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِنْ فُطُورٍ **(3)** ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ **(4)**"[148]

---

[146] البقرة
[147] الكهف
[148] الملك

وهو في حكمه حكـــيم، فـــلا أحكـــم منـــه، وهـــو خـــبير علـــيم، فحكمتـــه عن علـــم كامـــل، وخـــبرة كليـــة، فهـــو جـــل وعـــلا أحكـــم الحـــاكمين، فكفى بذلك حجة علـــى المكـــذبين بالـــدين: " فَمَـــا يُكَـــذِّبُكَ بَعْـــدُ بِالـــدِّينِ (7) أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ (8)"[149]

وهـــو ســـبحانه بـــنى كتابـــه علـــى حكمـــة ونسّـــق آياتـــه علـــى حكمـــة فـــأحكم البنيـــان والبيـــان، وحكّـــم المنطـــق والحجـــة والبرهـــان: " الـــر ۚ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (1)"[150]

وإن المتأمـــل في الكـــون كتـــاب الله المخلـــوق، وفي القـــرآن كتـــاب الله المحفوظ، لواجد من الحكمة مـــا يغنيـــه، ومـــن الحكَـــم مـــا يكفيـــه، فلابـــد من قلب ســـليم وعقـــل متـــيقظ، ويظـــل المســـعى خلـــف الحكمـــة دائمـــا، ونداء الرغبـــة فيهـــا قائمـــا، فعلـــى المـــؤمن أن يســـعى للحكمـــة ويرغـــب فيهـــا ويتـــوق إليهـــا، لا يحـــده في ذلـــك زمـــان، ولا يمنعـــه دون ذلـــك مكان، لتكون نبراس حياته علمـــا وعمـــلا، لأنهـــا كمـــا قـــال الـــنبي عليـــه الصلاة والسلام: "الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أولى بها"

---

[149] التين

[150] هود

الحق

" خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ (3)"[151]

للحق معان، أولها كونه نقيض للباطل، وثانيها اليقين، وثالثها النصيب من الشيء، ولكن أعلا معانيه أنه اسم للحق سبحانه، وهنا في نظري الرسوخ على بينة، والثبات على حجة، عكس الباطل الذي هو زيغ وضلال، وخسران متلف وضياع مفسد، فالله سبحانه هو الحق، وقوله الحق، خلق السماوات والأرض بالحق: " وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ الْحَقُّ ۚ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ ۚ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (73)"[152]

وأرسل نبيه بالحق: " إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ (24)"[153]

وأنزل القرآن بالحق وأنزل فيه الحق لأهل الحق ليكون حكم حق ومنهاج حقيقة: " إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ۚ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (105)"[154]

---

[151] التغابن
[152] الأنعام
[153] فاطر
[154] النساء

فنصر باالحق أهل الحق وقذف بالحق على الباطل فدمغه وأزهقه: "بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ (18)"[155]

ذلك أن أهل الباطل لا يستسيغون الحق ولو أيقنوا به، وأن حقائق البعث والحياة بعد الموت رجّت باطلهم وصدمت بطلانهم فكذبوها بُطْلا وجحدوا بها بُطولا وكفروا بها بطلانا، فجاء الله بالحق ليزهق الباطل وأهله: " وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ۚ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (81)"[156]

فله إحقاق الحق وله الولاية الحق: " هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا (44)"[157]

وإليه المنتهى حقا والرجعى حقيقة في موعد حق لا مهرب عنه ولا حياد منه: "وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ (19)"[158]

ولقاؤه حق ووعده حق: " يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (5)"[159]

فهو سبحانه الحق ولا يقول إلا الحق ولا يعد إلا بالحق: " وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا (122)"[160]

---

[155] الأنبياء
[156] الإسراء
[157] الكهف
[158] ق
[159] فاطر
[160] النساء

ونبيه عليه الصلاة والسلام جاء بالحق فلا مرية ولا كذب، بل هو الصدق المكتمل وهي الحقيقة الكاملة والاكتمال الحقيقي لمسيرة أهل الحق من أنبياء الله ورسله ومن كان معهم: " بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ (37)"[161]

فالحق أساس جوهري للملك الرباني، وهو حق مبني على العلم والحكمة، وهو حق بان للقوة والعدل والرحمة والحسبان، فالأسس تتفاعل فيما بينها، والحق ختاما ركيزة ربانية راسخة، فكل شيء مرتكز على الحق، فالخير كله حق، والكون مبني على الحق وبالحق، والله سبحانه هو الحق ومحق الحق وناصر الحق وأهل الحق وراد كل حق إلى من له حق، فتلك أحكام حكمته وعدله ورحمته في الدنيا، فإن أفرط الظلم فلا تفريط في محكمة الآخرة...

[161] الصافات

القوة

"إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (58)"[162]

القـــوة حـــافظ النظـــام، فهـــي لله مطلقـــة، وهـــي للخلـــق بنســـب، حـــين نتكلم عن القوة لدى بـــني الإنســـان، فهـــي ضـــمن حكـــم القـــوة الإلهيـــة، حـــافظ للنظـــام، لأن الأســـس الربانيـــة لهـــا أوجههـــا البشـــرية المســـتقاة بالضرورة مـــن أســـس مملكـــة الله، وهـــو ســـياق طويـــل لعلنـــا نلامســـه في علم الاجتمـــاع ضـــمن تطبيقـــات الأســـس الإلهيـــة، وفيمـــا يخـــص القـــوة كحـــافظ للنظـــام، ضـــمن البعـــد البشـــري، فإننـــا نعـــني القـــوة المرتبطـــة بالحق التي تأخذ من الله وتعمـــل تحـــت إمرتـــه وفي ســـبيله، فـــلا قـــوة حقـــا إلا حين يكون معها الحـــق، فتتكامـــل معـــه وتنـــبني عليـــه، تحميـــه وتحتمـــي به، مركـــزة علـــى الحكمـــة منظمـــة بـــالعلم، فتلـــك قـــوة تســـتمد قوتهـــا وشـــرعيتها مـــن قـــوة الله، وتلـــك قـــوة أهـــل الإيمـــان والحـــق والـــيقين، وذلك عهد من رضي الله عنـــهم لمـــن صـــلى الله عليـــه وبيعتـــهم لـــه ويـــد الله فوق أيـــديهم: " إِنَّ الَّـــذِينَ يُبَايِعُونَـــكَ إِنَّمَـــا يُبَـــايِعُونَ اللَّـــهَ يَـــدُ اللَّـــهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ (10)"[163]

والله سبحانه قـــوي عزيـــز، بـــنى ملكـــه وأسســـه علـــى القـــوة مـــع الحـــق وما ذكرنا من أسس، فـــالقوة وفـــق رؤيـــتي لعلـــم الأســـس هـــي الأســـاس الرابع، فـــلا خـــير فيهـــا مـــن غـــير حـــق، ولا قـــدرة للحـــق بذاتـــه إن لم

---

[162] الذاريات

[163] الفتح

تسنده قوة، وهنا كلام في المجال الإنساني، لأن النظام الرباني محكم قديم.

حين يؤتي الله نبيا أو رسولا حكمة وعلما، لابد أن يؤهله بالقوة، كي يمنحه الحكم وكي يلقنه العلم والحكمة، فانظر قوله عن نبيه موسى في سورة القصص: " وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (14)"[164]

وكذلك قوله عن يوسف قبل ذلك: " وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (22)"[165]

فالآية ذاتها، لأن القانون ذاته، والمقتضى ذاته، ولكن القوة تختلف، فلكل منهما قوة خاصة، فأما موسى فكان قوي الجسد، فأمده الله بما يحتاج قوة الجسد من آيات أولها العصا، لتدمير فرعون مصر وإغراقه وآله، وأما يوسف فكان قوي المنطق والتأويل، تأهيلا لملك مصر، وإنقاذ أهلها، فانظر عظمة القرآن وروعة الحكمة الإلهية، فذانك صنفان من القوة المادية والمعنوية، لكلّ حكمة ولكلّ حكم، والقوة أصناف كثيرة ضمن ذلك التقسيم فمنها القوى الظاهرية المتمظهرة ماديا والمحتاجة لمقومات المادة، ومنها الباطنية المحتاجة لمقومات الباطن وعوالم الروح، فمن ذلك قوة الإيمان، ومنه قوة الروح و قوة البصيرة، ومنه قوة الحجة وقوة البيان، فالقوة منظومة محكمة العناصر، لها آليات ونظم، ولها تمظهرات ودلائل، فقوة الله يراها الإنسان في الطبيعة

---

164 قصص

165 يوسف

من حوله، فتلك قـوة ظـاهرة غالبـة، ويلمسـها في قـوة المنطـق القـرآني وقوة البراهين، فتلك مـن قمـم القـوة المعنويـة المنطقيـة، ويشـعر بها في قوة الإيمان وقوة "الله أكـبر" حـين تقـال بلقـب نقـي تقـي شـجاع، وفي قـوة الـروح وقـوة الإرادة وقـوة العزيمـة، وقـوة الصـبر، فتلـك سمـة أهل العزم من الرسـل: " فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ (35)"[166]

فالصبر قوة، وأية قـوة، والإيمـان بـالله يمـنح القـوة، والقـوة بـالله تمـنح الطمأنينـة بـالله، فـذكر الله يقـوي القلـب ويمنحـه سـكينة وأمنـا وطمأنينة عظيمـة، فـذلك بـاب بـين الرحمـة والقـوة عظـيم: " الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (28)"[167]

وذلك نور للقـوة الإلهيـة ينتقـل مـن قلـة إلى أمـة ومـن أمـة إلى بنـاء حضارة متى توفر فعليا.

وكل القـوى بـالحق فيهـا خـير، وفي توحيـدها والتنسـيق بينـها بحكمـة وعلم فضل عظيم وقيمة جوهريـة، فـذلك مختصـر مـا أمـر الله بـه نبيـه يحي حـين أعطـاه الكتـاب: "يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ۖ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (12)"[168]

لأن يحيى لم يُمهَل حـتى يبلـغ أشـده ويسـتوي كمثـل موسـى ويوسـف علـيهم السـلام، بـل أوتي الحكـم وجـواهر الحكمـة وعلـوم الكتـاب

166 الأحقاف
167 الرعد
168 مريم

صبيا، فكان لابد من منحه كل أنواع القوة بإعجاز رباني لتمكينه من أخذ الكتاب واستيعابه وتفعيل أسراره والعمل به وبها، ولا أدعي علم ماهية الكتاب هنا، وهو تمش آخر لله له فيه حكمة علمها، رغم أنك واجد موسى يأخذ الكتاب بقوة أيضا، لكن بعد إعداد طويل شاق وبشكل مباشر يحتاج من قوة الجسد والروح ما لا يخطر ببال بشري إذ هو كليم لله ومنه أخذ ألواحا كتبها الله فهل تعي الجلال والعظمة والقوة والمهابة: "وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ (145)"[169]

والقوة الربانية قاهرة مهيمنة على أعداء الله، مخضعة لهم حينا: " وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (63)"[170]

ومهلكة لهم أحيانا: "وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (102)"[171]

فذلك الألم جزاء الظالمين، من عزيز قوي متين، وتلك الشدة في الحق حق يقين، وما ذلك إلا بعض من انتقام الجبار سبحانه من أعداء الله وأعداء الدين، فلا أحد يتحدى الأحد إلا ويغلبه الأحد، والتحدي منازعة الغلبة، ولا قوة لها أن تتحدى قوته، أو تخرج عن سلطانه، فالله لا كفأ له، فذلك من معاني الصمد،

---

[169] الأعراف
[170] البقرة
[171] هود

وذلكم مما في سورة الإخلاص العظيمة جاها عند الله ومكانة في القرآن، وسرا عن جليل الشأن ولدى أهل الحقيقة والعرفان: "قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (1) اللَّهُ الصَّمَدُ (2) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (3) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (4)"[172]

والصمد في اعتقادي القوي القاهر، والغالب الذي لا يغالب، والمتفرّد في أحكام ملكه، وموازين حكمه، ومقاليد مملكته، وفي لسان العرب (السَّيِّدُ المُطاع الذي لا يُقْضى دونه أَمر، وقيل: الذي يُصْمَدُ إِليه في الحوائج أَي يُقْصَدُ) وفي كل ذلك حق وخير.

القوة حافظ النظام، فهي كذلك عند الخالق، وهي كذلك عند الخلق، وكل ذي قوة استخدمها لحفظ نظام له، وهنا تتسرب أوهام القوة التي تخدع ضعاف القلوب ومرضى الأنفس، فيحافظون على ما يرونه نظاما بإفساد نظم الحق وتزييف أوجه الحقيقة ونشر الفوضى والخراب، فوهم القوة مهلك فعلا، رغم أن ذلك الوهم حين يقاس بالعتاد والسلاح والجنود والمال كمكونات للقوة الحربية أو لعسكرية والاقتصادية وقوة الملك والسلطان، فإن ذلك الوهم حينها يتحول إلى غرور فعلي لدى من سيطر عليه، فيظن أن لا غالب له، فذلك من تزيين الشيطان كذبا وبهتانا: " وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ

[172] الإخلاص

عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ ۚ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (48)"[173]

وحينها يستخدم أوهام قوته لتحدي القوة الحقيقية التي لا يسمح له وهمه وغروره برؤيتها، فيقول قول فرعون: " أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ (24)"[174]

ويمضي به وهم القوة فيطغى أكثر، ويجمع من حوله بطانة السوء وجند الباطل فيستكبر ويطغى متحديا جبار السماوات والأرض ويعميه ظنه أن لن يرد إلى شديد العقاب قهار الرقاب حتى يقول قول ذات الفرعون ويعمل بعمله: " وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (38) وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ (39)" [175]

وتمضي به تلك الأوهام فتشتد وتستبد، فينظر من حوله فيرى قصوره وأمواله وحراسه، فيعميه شيطانه فيقول مستكبرا وينادي مغترا نداء ذلك الهالك: "وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (51)"[176]

---

[173] الأنفال
[174] النازعات
[175] القصص
[176] الزخرف

ثم يستحوذ عليه الوهم من كل جانب ويسخطه الله بغضبه فيعمي بصيرته ويختم على قلبه وسمعه وبصره، فيعلو في الأرض بغير الحق ويفسد فيها، ويسرف في الفساد بلا اعتبار ولا رشاد، فيكون كفرعون أكثر الطواغيت ذكرا في القرآن: "إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِنَ الْمُسْرِفِينَ (31)"[177]

فذلك شأن كل طاغية من ولد آدم إلى قيام الساعة، ولكن حين يبطش به ذو القوة المتين، يصحو من أوهامه، ويدرك ضعف قوته، وقلة حيلته، وكلال بصيرته، ونقصان عقله، فيصرخ ضعيفا مهانا، ويدّعي خضوعا وإيمانا، لكن هيهات هيهات، لات حين مناص وألف لات: حتى إذا أدركه الغرق..

ففرعون نموذج لوهم القوة، نموذج كان الأكثر ذكرا ضمن قصة النبي الأكثر ذكرا في كتاب الله موسى عليه السلام، فتلك فتنة القوة التي كم أهلك الله بها من القرى ومن الطغاة ذكر من ذلك في القرآن نماذج تشمل كل صنوف الطغاة في تاريخ البشرية منذ أول طاغية إلى آخر رمق في حياة البشر على هذا الكوكب، فتجد حين تقرأ القرآن من قصص ثمود وعاد، وأهل مدين وقوم لوط، وقوم نوح من قبل، وتجد الله يبين جبروت قوته انتقاما لاستكبارهم بغيهم بغير الحق في سورة من القرآن عظيمة وآيات لها من القوة ما تقشعر له أبدان من يعلمون رهبة وخشوعا: " أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (6) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (7) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ

177 الدخان

مِثْلُهَــا فِــي الْبِلَــادِ (8) وَثَمُــودَ الَّــذِينَ جَــابُوا الصَّــخْرَ بِــالْوَادِ (9) وَفِرْعَــوْنَ ذِي الْأَوْتَــادِ (10) الَّــذِينَ طَغَــوْا فِــي الْبِلَــادِ (11) فَــأَكْثَرُوا فِيهَــا الْفَسَــادَ (12) فَصَــبَّ عَلَــيْهِمْ رَبُّــكَ سَــوْطَ عَــذَابٍ (13) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (14)"[178]

وإن النظــر بالقيــاس البشــري المــادي لفرعــون مــثلا، يكشــف أنــه كانت لديه قوة في جوانــب الحكــم والمــال والجنــد وغــير ذلــك، لكــن لم يكن لديه أهم قوة، ألا وهــي قــوة الحــق، فللحــق قــوة تصــله بــالحق سبحانه، فتلــك القــوة بــالله ومــن الله....وهــذا أمــر قــد يبــدو مثاليــا حــين ينظــر المــرء في ضــعف كــثير مــن أهــل الإيمــان وكثــرة الظلــم والجور والطغيــان، وأن القــوة بأنواعهــا الماديــة كلــها تــؤتى للغاصــبين، وأن أهــل الحــق يقتلــون علــى مــر التــاريخ وتتكــرر مآســيهم في كــل عصــر وحقبــة، فلكــل زمــن أصــحاب أخــدود يقتلــون وينكّــل بهــم، ولكن الإيمــان بــأن الله ســبحانه قــوي عزيــز: " مَــا قَــدَرُوا اللَّــهَ حَــقَّ قَدْرِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (74)"[179]

مع تســلح بالحكمــة، وتصــديق لكلمــات الله، يوصــل المــؤمن إلى قولــه ســبحانه: " وَلَنَبْلُــوَنَّكُمْ بِشَــيْءٍ مِــنَ الْخَــوْفِ وَالْجُــوعِ وَنَقْــصٍ مِــنَ الْــأَمْوَالِ وَالْــأَنْفُسِ وَالثَّمَــرَاتِ ۗ وَبَشِّــرِ الصَّــابِرِينَ (155) الَّــذِينَ إِذَا أَصَــابَتْهُمْ مُصِــيبَةٌ قَــالُوا إِنَّــا لِلَّــهِ وَإِنَّــا إِلَيْــهِ رَاجِعُــونَ (156) أُولَئِــكَ

---

[178] الفجر

[179] الحج

عَلَـــيْهِمْ صَـــلَوَاتٌ مِـــنْ رَبِّهِـــمْ وَرَحْمَـــةٌ ۖ وَأُولَئِـــكَ هُـــمُ الْمُهْتَـــدُونَ (157)"[180]

فـــذلك مـــن قـــوة الأقـــدار، وذاك مـــن قـــوة الإيمـــان والتســـليم لحكمـــة العلي العظيم.

والله سبحانه لم يمـــنح القـــوة الماديـــة لكـــل النـــاس بالتســـاوي، ولا القـــوة المعنوية كذلك، ولا قـــوة العقـــل، أو الحجـــة، وحـــتى قـــوة الـــروح وقـــوة الإيمـــان، وتجـــد مواجهـــات بـــين القـــوى المتضـــادة لأن القـــوة تحمـــل التضاد حسب النـــوع مـــن جانـــب وهـــو تضـــاد تكـــاملي كقـــوة المعـــنى وقوة المـــادة، أو حســـب الحـــق والباطـــل فـــذلك تضـــاد تنـــاقض كتلـــك المواجهة التاريخية الـــتي بينـــها القـــرآن بـــين قـــوتين متضـــادتين متناقضـــتين قوة غاشمة ظـــالم لمتفـــرعن آخـــر وقـــوة الإيمـــان والحجـــة لـــنبي مـــن أهـــل العزم، وكيـــف كانـــت غلبـــة الحجـــة لخليـــل الله إبـــراهيم الـــذي حاجـــه النمرود في ربه غـــرورا واســـتكبارا وهـــو مـــن حكـــام بابـــل تألـــه فأخـــذه الله أخذه لفرعـــون ولكـــل طـــاغ فتـــدبر: " أَلَـــمْ تَـــرَ إِلَـــى الَّـــذِي حَـــاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِـــي رَبِّـــهِ أَنْ آتَـــاهُ اللَّـــهُ الْمُلْـــكَ إِذْ قَـــالَ إِبْـــرَاهِيمُ رَبِّـــيَ الَّـــذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَـــالَ أَنَـــا أُحْيِـــي وَأُمِيـــتُ ۖ قَـــالَ إِبْـــرَاهِيمُ فَـــإِنَّ اللَّـــهَ يَـــأْتِي بِالشَّمْسِ مِـــنَ الْمَشْـــرِقِ فَـــأْتِ بِهَـــا مِـــنَ الْمَغْـــرِبِ فَبُهِـــتَ الَّـــذِي كَفَـــرَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (258)"[181]

فقـــوة إبـــراهيم عليـــه الســـلام ومـــا أوتي الأنبيـــاء مـــن قـــوى وقـــدرات ليست متساوية بينهم ولا هـــي متســـاوية مـــع وبـــين النـــاس، فـــلا العقـــل

[180] البقرة
[181] البقرة

متساو ولا الغنى ولا قوة الإرادة ولا غيرها من القوى، فأنت ترى نبي الله داوود ألان له الله الحديد وسخر معه الجبال والطير: "وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (10)"[182]

وسخر لنبيه سليمان بن داوود عليهما السلام (هنا باب لعلم التمكين سيأتي سياقه) الريح وعين القطر والجن والشياطين: " وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ ۖ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ۖ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ (12)"[183]

وكلها صنوف للقوة، وأنت ترى في القرآن نماذج مختلفة تصل حد إحياء الموتى بإذن الله وهي من القوى الربانية العظيمة فذلك ما منح الله المسيح عليه السلام ضمن منظومة عظمى من القوى الإعجازية التي تستحق التدبر ويطول فيها الكلام فتأمل: " إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي ۖ وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي

---

[182] سبأ

[183] سبأ

إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (110)"[184]

فهي من براهين القوة الإلهية، والتي لا حد لها مطلقا، وكلها قوى وقدرات إعجازية من لدن الله سبحانه، وهكذا الحال ضمن مقامات الأنبياء ومعجزاتهم، ومقامات الأولياء وكراماتهم، وتجد في التاريخ وما دوّنه البشر منه، وفي العالم من حولك، نماذج من ذلك فلا قوى البشر (أفرادا ودولا وشعوبا) متشابهة، ولا قوى الحيوانات وقدراتها متساوية، وبالقياس تفاوت قوى الجن والملائكة وغير ذلك، فليست قوة جبريل كقوة سواه، فذلك مثلا شأن الروح القدس: "عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ (5) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ (6)وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ (7)"[185]

وهو من صنوف القوة التي لا يمكن لبشري تخيلها ولا تصورها، فهي من القوى الربانية الجبروتية الشديدة التي منحها لخاصة ملائكته وخدم مملكته وجند ملكوته.

فالقوة هرمية، ولا يظنن أحد أن ذلك غير عادل ويدعي أن الناس سواء في العقل أو في ما منحهم الله في كل الجوانب على اختلافها والمجالات على اتساعها، ولا في المواهب والمهارات والملكات وسواها، مطلقا، فذلك لا يدخل ضمن العدل من ضمن الرحمة والحكمة، فإن عجز العقل عن التفسير كفاه كي لا يهلك صاحبه في معاندة الله وإرادته أن يعلم أن ذلك فضل الله وتلك حكمته،

---

[184] المائدة

[185] النجم

وهو غني عن السؤال: "لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ (23)"[186]

وما يضاف إلى القوة أنها وعاء يحمل سواه من النظم والأسس، فتجد قوة العلم، وقوة الحكمة، وقوة الحق، وقوة القوة، وقوة الرحمة، وقوة الحسبان، وقوة ما ضمن ذلك من تمفصلات وشُعب، وقوة ما فيها من نظم، كما أمكنك أن ترى عبر استخدام المصفوفة العلمية التي بينتها لك سابقا كيف تتفاعل الأسس فتجد مثلا علم الحكمة وما فيه من علوم عظيمة تشمل علم الطب وتصل العلوم الروحانية وغير ذلك، وعلم الحق وضمنه الشرائع وعلومها، وعلم القوة وضمنه ما لا يحصى من العلوم ضمنها علوم الأسلحة وصولا إلى علوم فنون الدفاع إلى ما لا يخطر ببال، وهكذا فقس لأن المجال لا يسمح لي بتفصيل كل ذلك.

ضمن التفاوت بين القوى، تجد نسبيتها، وما بين القوى الغاشمة الضارية، يعيش ضعاف القوة، المساكين والمعدمون والمستضعفون في الأرض، ولقد طلب الجبار سبحانه من أهل القوة والإيمان أن يحموهم، فقال سبحانه: " وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا (75)"[187]

---

186 الأنبياء

187 النساء

فكان ذلــك كتابــا للجهــاد بالمــال والــنفس والقتــال في ســبيل الله ولــو كان في ذلك بلاء يُكــره ولكــن الــوهن يــؤدي إلى مــآس أكــبر وحــال هــوان لا يــرام العــيش معــه، فــذلك ممــا لــك أن تتــدبره في قولــه سبحانه: " كُتِبَ عَلَــيْكُمُ الْقِتَــالُ وَهُــوَ كُــرْهٌ لَكُــمْ ۖ وَعَسَــىٰ أَنْ تَكْرَهُــوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُــمْ ۖ وَعَسَــىٰ أَنْ تُحِبُّــوا شَــيْئًا وَهُــوَ شَــرٌّ لَكُــمْ ۗ وَاللَّــهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (216)"[188]

وكره ما هــو خــير وحــب مــا هــو شــر مجالــه أشســع ومــداه أوســع وسبق بيان عنه ضمن الكلام عن الحكمة.

الجهــاد في ســبيل الله يكــون بإعــداد وتهيئــة، وبأشــكال مختلفــة، تواجــه الطــاغوت وترهــب العــدو وتفعــل الواجــب لحمايــة الــدين والأرض والعرض من أعــداء الله والإنســان، أو تصــبح الحيــاة مَهانــة، فــإن كــان تكافئ مع كرامة فالســلم خــير، فــذلك مــن أهــم مــدارات الحيــاة بــين البشر، وذلك من أخــص خــواص حيــاة الــنبي عليــه الصــلاة والســلام وأصحابه: " وَأَعِدُّوا لَهُــمْ مَــا اسْــتَطَعْتُمْ مِــنْ قُــوَّةٍ وَمِــنْ رِبَــاطِ الْخَيْــلِ تُرْهِبُونَ بِــهِ عَــدُوَّ اللَّــهِ وَعَــدُوَّكُمْ وَآخَــرِينَ مِــنْ دُونِهِــمْ لَــا تَعْلَمُــونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَــيْءٍ فِــي سَــبِيلِ اللَّــهِ يُــوَفَّ إِلَــيْكُمْ وَأَنْــتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (60) وَإِنْ جَنَحُــوا لِلسَّــلْمِ فَــاجْنَحْ لَهَــا وَتَوَكَّــلْ عَلَــى اللَّــهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (61)"[189]

وهذا مجال لما أسميــه (أقنــوم قــوة الحــرب وقــوة الســلم)، وهــو مفهــوم مبتكــر ضــمن المصــطلح تركيبيــا ومفهوميــا، وســيكون لي لهمــا تطــوير

---

[188] البقرة

[189] الأنفال

ضمن علـم فنـون الحـرب والفنـون الدفاعيـة ينـبني علـى هـذه الآيـة أساسا، فقوة الحـرب قـوة تصـارع، وقـوة السـلم قـوة تكـافئ، وهـو مجال سأعمق التحليل فيه ضـمن الكتـب الخاصـة بـه وفـق مـا يسـر الله سبحانه لي.

وإن هـذه التضـاربات والصـراعات بـين أنمـاط القـوة تقـدير إلهـي حكيم، حيـث أن حكمتـه سـبحانه اقتضـت أن تكـون الحيـاة الأرضـية الدنيويـة مجـال حـرب ذات أبعـاد كـثيرة، مـن العـالم إلى نفـس الإنسان، بين قـوة الخـير الفعليـة وقـوة الشـر والوهميـة، ولكـن قـوة الخير كثيرا مـا كانـت ضـمن المعـنى وبـواطن القلـب والـروح، وقـوة الشر غالبا ما كانت ماديـة باطشـة غاشمـة، ولكـل قـوة جنـود يقـاتلون في سبيلها، فأما قوة الحـق فهـي في سـبيل الله، وأمـا قـوة الباطـل فهـي الطـاغوت وهـي في سـبيله، فتلـك مـن حـرب أوليـاء الله مـع أوليـاء الشيطان : " الَّـذِينَ آمَنُـوا يُقَـاتِلُونَ فِـي سَـبِيلِ اللَّـهِ ۖ وَالَّـذِينَ كَفَـرُوا يُقَـاتِلُونَ فِـي سَـبِيلِ الطَّـاغُوتِ فَقَـاتِلُوا أَوْلِيَـاءَ الشَّـيْطَانِ ۖ إِنَّ كَيْـدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا (76)"[190]

ولعلـك حـين تنظـر في القـرآن، وتتـدبر تـاريخ بـني الإنسـان، تـرى كيـف أن الله سـبحانه وهـو القـوي المقتـدر امـتحن بـالقوة، بـين مستضعف وضـعيف، ومتجـبر وطـاغ، وطائفـة مؤمنـة تقاتـل في سـبيل الله بما منحها مـن قـوة، فيمـدهم حينـا بقـوة جنـوده وملائكتـه: مـم

[190] النساء

الملائكة مقـرنين..ويصـبر أحيانـا حـتى إذا جـاء أمـره وفـار التنـور: " حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ (40)"[191]

أصدر أمره قضـاء، وأظهـر قوتـه عيانـا، نصـرة لكـل مـؤمن ونكـالا بكـل مسـتكبر ومتجـبر..إذ قـوة الطغيـان غـرور واغتـرار، وتجـبر واسـتكبار، ووهـم أنها أشـد قـوة مـن الجبـار، كشـأن عـاد حـين استكبروا، فيكـون رد الجبـار قويـا ينسـف أوهـامهم ويسـفّه أحلامهـم ويمحق آثارهم محقـا: "فَأَمَّـا عَـادٌ فَاسْـتَكْبَرُوا فِـي الْـأَرْضِ بِغَيْـرِ الْحَـقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُـوَّةً ۖ أَوَلَـمْ يَـرَوْا أَنَّ اللَّـهَ الَّـذِي خَلَقَهُـمْ هُـوَ أَشَـدُّ مِـنْهُمْ قُـوَّةً ۖ وَكَـانُوا بِآيَاتِنَـا يَجْحَـدُونَ (15) فَأَرْسَـلْنَا عَلَـيْهِمْ رِيحًـا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَـاتٍ لِنُـذِيقَهُمْ عَـذَابَ الْخِـزْيِ فِـي الْحَيَـاةِ الـدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ (16)"[192]

فتلـك أيـام الله في أرض الله، وتلـك آيـات قوتـه القـاهرة، وذلـك مصـير أوهـام المسـتكبرين مـن بـني الإنسـان، يظنـون أنهـم الأقـوى، لكـن قـوة الله الجبـارة أشـد والله أقـوى وأكـبر، فـذلك درس عظـيم للتدبر والنظـر لاستشـعار عظمـة الله ومتانـة قوتـه وشـدة سـطوته وأن لا شـيء يعجـزه: "أَوَلَـمْ يَسِـيرُوا فِـي الْـأَرْضِ فَيَنْظُـرُوا كَيْـفَ كَـانَ عَاقِبَةُ الَّـذِينَ مِـنْ قَـبْلِهِمْ وَكَـانُوا أَشَـدَّ مِـنْهُمْ قُـوَّةً ۚ وَمَـا كَـانَ اللَّـهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِـي السَّـمَاوَاتِ وَلَـا فِـي الْـأَرْضِ ۚ إِنَّـهُ كَـانَ عَلِيمًـا قَدِيرًا (44)"[193]

---

[191] هود
[192] فصلت
[193] فاطر

فــذلك لأهــل لنــهى عــبرة، ولأولي الألبــاب موعظــة، ويظــل الظــالمون الــذين استضــعفوا خلــق الله وجحــدوا بــالحق واتخــذوا مــن دون الله آلهة توهمــا وهــوى، في غمــرة أوهــامهم، حــتى يــأتي أمــر الله فيصــعقون من هــول مــا يــرون ويتعلمــون أقــوى دروس القــوة وأعظمهــا: "وَلَــوْ يَرَى الَّــذِينَ ظَلَمُــوا إِذْ يَــرَوْنَ الْعَــذَابَ أَنَّ الْقُــوَّةَ لِلَّــهِ جَمِيعًــا وَأَنَّ اللَّــهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (165)"[194]

فذلك قدر الله الذي قل مــن عرفــه، وقليــل مــن فهــم آياتــه وبراهينــه، إذا كثيرون هم المتوهــون لقــوة فتنــوا بهــا وتوهمــوا أنهــا بــلا حــد ولا ضد، ولكن لله في ملكه يوم يجلــي قوتــه ويــبين قــدره الفعلــي لكــل مــن خلق علمه من علم مــن قبــل، أو جهــل مــن جهــل، فــذلك وعــد حــق وذلك يوم مشــهود: " وَمَــا قَــدَرُوا اللَّــهَ حَــقَّ قَــدْرِهِ وَالْــأَرْضُ جَمِيعًــا قَبْضَــتُهُ يَــوْمَ الْقِيَامَــةِ وَالسَّــمَاوَاتُ مَطْوِيَّــاتٌ بِيَمِينِــهِ ۚ سُــبْحَانَهُ وَتَعَــالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (67)"[195]

[194] البقرة
[195] الزمر

العدل

" اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ (8)"[196]

العدل القسط..والاستقامة على المنهج..وهو حكمة في تقييم الأمور والنظر في القضايا، وهو ضد الظلم ونقيض الجور ومضاد للتعدي...والله سبحانه العادل الذي لا يظلم أحدا: "وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (49)"[197]

جعل العدل أساسا لملكه وأُسّا لحكمه وتأسيسا لحكمته...فالحكمة تأسست على العدل في النظر أي الاستقامة في منهجه، والحكم الرباني حكم عادل، ومملكة الله مملكة عدل، ولئن بان لابن آدم في مظالم الدنيا جور كبير، فلأن الحي يرى جانبا من الحقيقة ولا يعرف ما خلف حجاب الزمن وما في محكمة الآخرة، حيث تفصل كل قضية ويقطع في كل مسألة وينظر في كل أمر: " إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ (40)"[198]...

وحيث يحاكم المكلّفون بما كسبوا وتجزى كل نفس بما تسعى: "إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ (15)"[199]

---

[196] المائدة
[197] الكهف
[198] الدخان
[199] طه

ضـــمن رؤيـــتي في علـــم الأســـس، فالعـــدل هـــو الأســـاس الخـــامس بعـــد العلـــم والحكمـــة والحـــق والقـــوة، لأن القـــوة حـــين تفـــرط دون عـــدل تكون بطشا وتجبرا: " وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (130)"[200]

ولأن القـــوة بالعـــدل تلامـــس الحـــق وتتحـــد بالحكمـــة..وهـــي بـــالظلم تزيـــغ وتهلـــك صـــاحبها في النهايـــة...وقـــد ســـبق البيـــان ضـــمن القـــوة فانظر...

العدل هو أساس النظـــام، وهنـــا كلمـــة العلامـــة ابـــن خلـــدون في كتابـــه التأسيســـــــي لعلـــــم الاجتمـــــاع (المقدمـــــــة): "العـــــدل أســـــاس العمران"...فتلـــك قاعـــدة جوهريـــة كـــل مـــن زاغ عنـــها ولم يعمـــل بهـــا حاكمـــا أو محكومـــا كـــان مصـــيره الخـــزي في الـــدنيا والخـــزي في الآخرة...

وإن من العدل تجنـــب الظلـــم، وإن أكـــبر الظلـــم الشـــرك بـــالله...فـــذلك مما كان في وصايا لقمـــان الحكـــيم لابنـــه: " وَإِذْ قَـــالَ لُقْمَـــانُ لِابْنِـــهِ وَهُـــوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (13)"[201]

ومن العدل القسط مـــع الـــنفس بتجنـــب الســـيئات وإتبـــاع ســـبل الخـــير والإيمان بالعلي القـــدير وعـــدم معارضـــة أمـــره أو تحـــدي قدرتـــه فـــذلك ظلـــم للـــنفس شـــديد:"وَمَـــا ظَلَمُونَـــا وَلَكِـــنْ كَـــانُوا أَنْفُسَـــهُمْ يَظْلِمُـــونَ (57)"[202]

---

[200] الشعراء
[201] لقمان
[202] البقرة

والرب جل وعلى أمر بالعدل: " قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (29)"[203]

وفي الآية عبر عظيمة ودروس رائعة تربط العدل بالأخلاق وصدق العبادة والإخلاص والدعوة وهي دروس لو مضيت خلف أنوارها ومعانيها لكان فيها سَفرٌ قائم ولكان منها سِفْرٌ قيّم.

والله سبحانه رغب في العدل وأمر به وفرضه، ودعا المؤمنين إليه في كل أحكامهم ومعاملاتهم وأقوالهم وأفعالهم: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۚ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (8)"[204]

وليس أدل على عظمة العدل وقيمته من أن يتسمى الله به فهو سبحانه الحكم العدل فارتبط العدل بالحكم لأنه أساس له...وهو عادل لا يظلم مطلقا مهما كان مقدار الظلم صغيرا فمن ذلك قوله سبحانه: " وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ۖ وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ (47)"[205]

موازين القسط هي موازين العدل، فالظلم منتف كليا فلا تظلم نفس شيئا، وما جاز يوم القيامة فهو جائز دائما في عدل الله

---

[203] الأعراف
[204] المائدة
[205] الأنبياء

وحكمه فلا تبديل لكلماته ولكن التجلي يوم القيامة أظهر والمحكمة أشمل، وحبة الخردل دليل على انتفاء الظلم كليا مهما كان جزئيا، وعلى عظمة العدل الإلهي، ودقة الحكم والحساب، وللآية معان في الحسبان نعيدها في إطاره.

وضمن قيمة العدل القانون الإلهي والتشريع الرباني والأحكام الفقهية وخاصة ضمن فقه المعاملات، والشهادة بالقسط هامة جدا لأنها شهادة الزور وقول الدور أساس للفوضى والظلم وفقدان المصداقية، فلذلك أمر الله بالكتبة العدول وهم الأمناء (والله علمهم ونبيه كيف يكونون أمناء ومعنى الأمانة فكان من أسيادهم أبا عبيدة عامر بن الجراح رضي الله عنه أمين رسول الله) وأمر أن تكتب المعاملات والعهود والعقود والديون سواها من قبل هؤلاء العدول:" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا (282)"[206]

وهو ما له مجاله ضمن فقهه الخاص (وفي المدونة الإسلامية تفصيل دقيق لذلك) وفيه روعة التشريع القرآني وما تأسست عليه الحضارة الإسلامية وانبنت عليه دساتير بعد ذلك ضمن التأثر بالثقافة الإسلامية والأندلسية خاصة للجانب الأوروبي وما كان من نتاجه، وإن أنكر بعض البشر وزاغ بعضهم الآخر عن المنهج

---

[206] البقرة

فإن تشريعات القرآن هي المؤسس الفعلي لما شهده العالم كله من تطور فيما بعد وهو ما لا يلغي دور الجهد الإنساني والعمل الحضاري، ولا دور بقية الأنبياء عليهم السلام ووجود تشريع إلهي سابق في التوراة والإنجيل والصحف الإبراهيمية والزبر وبقية الكتب السماوية التي لا نعرفها، وهو ما حرفه وضاعوا بنو إسرائيل فزيفوا وبدلوا لما يناسب أهواءهم ويتناسب مع مطامعهم ومصالحهم، وكذلك فعل من سار في مسارهم ودار في فلكهم ومدارهم، كما لا يمنع ذلك من الاعتراف بدور الحضارات القديمة ودور حمورابي كأول من سن دستورا وفق المعلوم من التاريخ ..وغير هذا ذو شجون كثيرة وهو باب كبير..

وإنه لمن المحال أن أذكر العدل دون ذكر العادلين، ومحال أن يذكر العادلون دون ذكر العدل المحمدي العظيم ونماذجه الكثيرة جدا والتي تجسد عدله وسمو خلقه وعظمة ما آتاه الله من حكمة، ثم ما كان لأصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام ورضي الله عنهم من حب للعدل فتلك نماذج من المدرسة المحمدية ونخبة من أهل العدل بقيت موعظة عظيمة للتاريخ كعدل الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه ومن ذلك تلك القولة الرائعة في القصة الشهيرة حيث جاء المرزبان رسول كسرى للقاء أمير المؤمنين وقائد دولة المسلمين وهو في شوق لرؤية الرجل الذي اهتزت تحت سطوته وسنابك خيول جنوده ممالك العالم ظانا أنه سيجد أسوارا وحراسا وملكا محاطا بالخدم والحرس وكل ما يثير الرهبة في النفوس، فدخل المدينة وسال عنه، فقيل له أنه ذلك الرجل

الذي ينام تحت الشجرة، فوجد رجلا بملابسه البسيطة ينام في سكينة فقال قولته الخالدة: "حكمت فعدلت فأمنت فنمت يا عمر"، ففي ذلك عبرة لكل حاكم وحجة على كل ظالم.

وكذلك قصة الإمام علي كرم الله وجهه حين سرق له يهودي درعه وهو إذاك خليفة الرسول وأمير المؤمنين، فاشتكاه إلى قاضيه شريح (شريح بن الحارث بن قيس بن جهم الكندي المحدث والشاعر وقاضي الكوفة لستين سنة ولاه عمر القضاء وقال عنه الإمام علي "هو أقضى العرب" عمر كثيرا) فقال القاضي هل من بينة، فقال لا بينة عندي، أو قال لدي الحسن والحسين يشهدان فقال شهادة الإبن لا تجوز، المهم حكم شريح بالدرع لليهودي بعد أن سأله فقال الدرع درعي وهي عندي، وخرج اليهودي يسأل بينه وبين نفسه عن هذا العدل ثم رجع فقال: "أمير المؤمنين قدمني إلى قاضيه، وقاضيه يقضي عليه..أقسم أنها لأخلاق أنبياء، وأن هذا الدين على حق، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، والدرع درعك يا أمين المؤمنين أخذته من بعيرك الأورق"، فقال له الإمام علي: "أما وقد أسلمت، فالدرع لك"، ففي ذلك درس وعبرة ومنهج لأهل الدعوة لله وللمسلمين كافة أن الإسلام ليس صورة وقالبا بل جوهرا ومعاملة، وأن عدل المسلمين ونبلهم وأخلاقهم هي السبيل الأسلم والأنجع لإعطاء النموذج للعالم ولهدي الناس لهذا الدين...وهو من عبر التاريخ وتطبيقاته لدى المسلمين في كل مكان كانوا فيه كثيرة جدا ضمن

العــدل والقســط في الحكــم والتجــارة وســواها، وهــي نمــاذج لا يقلــل مــــن قيمتـــه كثـــرة البغـــاة والطغـــاة والظلمـــة في التـــاريخ الإسلامي..والكلام يطول...

العدل أساس العمــران حقــا، وأســاس مملكــة الرحمــان صــدقا، وأســاس النظــام يقينــا، وكــثيرة هــي الــبراهين الفعليــة علــى ذلــك في الســياق الإنساني على عظمة العــدل وروعــة تطبيقــه، ورغــم أنــه مــن المحــال في حال كحال الأمة اليوم الوصــول إلى تمــام ذلــك، كمــا أنــه مــن المحــال فعليــا في كــل تــاريخ بــني الأرض والإنســان تمــام العــدل، فــإن كــل ذلك لا يلغي قيمــة العــدل مطلقــا، وإن كــل مــا ذكرتــه لــك ضــمن القــوة والحــق والحكمــة...يحتــاج للعــدل ويتأســس عليــه...وإن منــهج التقصي العلمــي لقيمــة العــدل مــرتبط بعلــوم كــثيرة منــها الاجتمــاع والاقتصاد والفقه، ولي عــودة لكــل هــذه العلــوم بشــيء مــن التفصــيل المختــزل...وإن للعــدل في كــل شــيء خزانــة تضــمنه كلــه..ومقــلاد يحتويــه وإقليــد يفتحــه...ألا وهــي التقــوى..فــالتقوى، الــتي هــي في نظــري أهــم شــروط الفقــه كمــا ســيأتي البيــان، هــي ضــمانة العدل..وهــي خزينتــه ومفتاحــه، لأنهــا تصــل الإنســان بربــه..وتجعلــه على نفسه حســيبا قبــل كــل حســيب..ورقيبــا قبــل كــل رقيــب...إذ يســتمد ذلــك مــن الحســيب الرقيــب ســبحانه..ويرقــب الله في كــل عمل أو قــول...فــذلك جــوهر العــدل وتلــك أم المســالة...وذاك خــير

الزاد إلى يوم المعـــاد: "وَتَـــزَوَّدُوا فَـــإِنَّ خَيْـــرَ الـــزَّادِ التَّقْـــوَى وَاتَّقُـــونِ يَـــا أُوْلِي الأَلْبَابِ﴿197﴾"[207]

[207] البقرة

الرحمة

" كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ (54)"[208]

قبل أن نبحث في الرحمة لابد من التساؤل: لو كان الله سبحانه يعامل كل الناس بالعدل المحض فقط في الدنيا، هل كان ينجو منهم إلا معصوم أو متتلمذ صادق على يديه أو مهدي بهداية ربانية موصولة..فإن الناس يخطئون ويظلمون..ولو كان العدل المسلط قاطعا لما مُنحوا فرصة أخرى، فأي عدل في ذلك!!!!

كما أن الله يحب نبيه محمدا أكثر من كل الخلق، وأوجب الصلاة والسلام عليه، ويحب الأنبياء والرسل أكثر من بقية الناس ويفضل بعضهم على بعض: " تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ۚ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ (253)"[209]

وكذلك الخلق كلهم من كبار الملائكة إلى بسطاء الناس بينهم مراتب غير متساوية (غير عادلة بالنظر المجرد أو السطحي للعدل)، فالملائكة رتب ومقامات غير متساوية: "وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ (164)"[210]

[208] الأنعام
[209] البقرة
[210] الصافات

بل فضل بــني آدم علــى كــثير مــن خلقــه ومــنحهم أمــورا تفضــيلية: " وَلَقَــدْ كَرَّمْنَــا بَنِــي آدَمَ وَحَمَلْنَــاهُمْ فِــي الْبَــرِّ وَالْبَحْــرِ وَرَزَقْنَــاهُمْ مِــنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا (70)"[211]

فهــذا التفضــيل موجــود في كــل شــيء مــن المــلأ الأعلــى إلى الجــن والإنس والحيوان والشــجر حــتى الحجــر فحجــر كــريم وآخــر لا قيمــة له....

فأي عدل في ذلك..أن يحــب عبــدا أكثــر مــن ســواه..أن يــؤتي احــدهم النبوة..وآخر يؤتيه الحكمة..وآخر يولد مجنونا بلا عقل؟؟!!

أن يُضل هــذا ..ويهــدي ذاك، ولــو شــاء لجعــل كــل النــاس سواســية ومــنحهم الإيمــان متســاويا لكنــه شــاء أن يتفــاوتوا فهــدى مــن أراد وأضل من أراد: " وَلَــوْ شَــاءَ اللَّــهُ لَجَعَلَكُــمْ أُمَّــةً وَاحِــدَةً وَلَكِــنْ يُضِــلُّ مَــنْ يَشَــاءُ وَيَهْــدِي مَــنْ يَشَــاءُ ۚ وَلَتُسْــأَلُنَّ عَمَّــا كُنْــتُمْ تَعْمَلُــونَ (93)"[212]

هنــا المتفلســفون وأدعيــاء العقــل المحــض ومــن شــاكلهم قــالوا كلامــا كثيرا..فمنهم مــن جــرح في العــدل الإلهــي، ومنــهم مــن جــزم أن كــل النــاس سواســية وان لا فضــل لأحــد علــى أحــد عــالم أو جاهــل صــاحب فضــل أو ســواه، وأن العقــول متســاوية والمقــام متســاو بــين الــنبي والإنســان العــادي، وجعلــوا العقــل مشــتركا كميــزة بتســاو كامل بــين بــني آدم جميعــا، فــإن قلنــا أن الــنبي أكرمــه الله بــالمعجزات قالوا أن كرامة النبي أنــه إنســان كغــيره مــن النــاس وبشــر كســواه في

[211] الإسراء
[212] النحل

كل شـــيء، فيرفضـــون المعجـــزات كليـــا لأن فيهـــا خروجـــا عـــن العقـــل وعن المساواة والعدل ..

وإن قيل أن النبي ملـــهَم مـــن الله وأن مـــدى إدراكـــه أشســـع مـــن النـــاس رددوا أن لا ميـــزة لـــه فكـــل العقـــول متســـاوية، بـــل الأنبيـــاء عنـــدهم كغيرهـــم يشـــكّون في وجـــود الله ويبحثـــون بعقـــولهم، وهنـــا تأويلـــهم لقصة نبي الله إبراهيم وبحثه عـــن ربـــه عـــبر رؤيـــة الأفـــلاك: " فَلَمَّـــا جَـــنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّـــي فَلَمَّـــا أَفَـــلَ قَـــالَ لَـــا أُحِـــبُّ الْـــآفِلِينَ (76) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَـــالَ هَـٰــذَا رَبِّـــي فَلَمَّـــا أَفَـــلَ قَـــالَ لَـــئِنْ لَـــمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (77)"[213]

فيرون أن في ذلك شـــك عقـــل، وأنـــه دليـــل علـــى تســـاوي الجميـــع، لأن ذلك منطق العقل، ولأن في ذلك جوهر العدل..

التفاوت بين الخلـــق كمـــا أقـــر القـــرآن هـــل فيـــه حقـــا غيـــاب للعـــدل بالنظر المنضبط بحدود العدل فقط ومعناه المجرد؟؟

والتساوي بين النـــاس كمـــا يـــدعي بعضـــهم هـــل فيـــه اســـتدعاء لقيمـــة العدل كما يتصورونها؟؟

وفي الحـــالين إشـــكال حقيقـــي، فمـــا هـــو المخـــرج والحـــل لكـــل ذلك..وما هو المعنى؟؟

إن الشك في العـــدل الإلهـــي المطلـــق والكامـــل أمـــر مـــن نقصـــان العقـــل والفهـــم والإيمـــان، وقـــد ســـبق البيـــان في بعـــض أوجـــه العـــدل الإلهـــي، لكـــن حصـــر الفهـــم والتفســـير لمـــا ســـبق ضـــمن العـــدل بمعـــنى جـــاف

213 الأنعام

ومفهوم سجين في العدل ذاته هو كلام خارج الإطار، لأن كل ما ذكرنا يندرج ضمن إطار آخر أشمل من العدل، وإن كان محتويا للعدل ضمن ذوق خاص، وهو أساس يليه ضمن نظرنا في أسس الملكوت الإلهي، ألا وهي "الرحمة"...

فتفضيل الله خلقه بعضهم على بعض رحمة منه، كي يُعلم الفضل عند أهل الفضل فيُسعى إليه، ويُرى عكسه فيُتجنّب، لأن الأضداد تبين بعضها، وهداية الله لمن شاء رحمة، فذلك من كرامة الله على بعض خلقه، وتلك مرحمة ربانية عظيمة، وهو سبحانه من رحمته فضّل الأنبياء عقلا وقلبا على بقية الناس، كي يكونوا أسوة حسنة ومعلمين وهداة للحق والخير، فالتفلسف والإدعاء في هذا نقمة على العقل المحدود رغم غرور بعض أدعيائه، فهذا التفضيل تكريم ورحمة ربانية لا مساس لها بالعدل بل هي تحت أطر الرحموت الإلهي، لذلك كان أهل الفضل والعلم يدركون قيمة هذه الرحمة فيحمدون الله عليها شكرانا وعرفانا، فذلك شأن داوود وسليمان عليهما السلام: " وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (15)"[214]

وحتى تفضيله سبحانه للكائنات وللشجر ولكثير مما نعلم ومما لا نعلم فيه رحمة تدل على عظمة الخالق وقدرته وعلى فضله العميم وكرمه العظيم، بل إنه سبحانه يبين أن في ما فضل في الأرض وما

[214] النمل

أظهر من تفاضل بين الشجر وفي أنواع الثمر آيات لقوم يؤمنون ويتدبرون في ذلك فتأمل هذه الآية البديعة من بديع السماوات والأرض: " وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (4)"[215]

فهي الرحمة والقدرة والجمال والجلال والكمال والفضل والتعدد من المفرد فمن ماء واحد يخرج ثمر مختلف وحتى نفس النوع فالنخل أنواع وهكذا وصولا للفردية وكل ذلك دليل على وجود خالق واحد نوع كل شيء وهو مفرد سبحانه فاعتبر.

وحين نكون في حضرة الرحمة الربانية، فإن آيات من القرآن العظيم الذي نزله الله رحمة وشفاء ونورا، تشفي الغليل وتعطي الدليل، فانظر قوله ذكرا لا حصرا: " وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (54)"[216]

فانظر عظمة الرحمة ومكانتها، فلم يكتب الله على نفسه في القرآن إلا الرحمة، فهي ميثاق بين الله وذاته، عهد رباني عظيم، فليس أعظم دليلا وحجة على عظمة مترلة الرحمة عند الله من أن يكتبها

---

[215] الرعد
[216] الأنعام

على نفسه، إنه ميثاق إلهي عظيم، وبرهان جلي على منزلة الرحمة عند الله سبحانه، وهو القائل: "قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ قُلْ لِلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (12)"[217]

وفي كل القرآن الكريم هاتان الآيتان نموذجيتان فريدتان محتويتان على أمر عظيم وميثاق قديم وعهد موصول بالرحمة كتبه رب السموات والأرض على نفسه، فهل يحتاج عاقل لأعظم من هذا حجة!!

الرحمة الإلهية فضل وخير، لولاها لهلك أكثر الناس، بل لما بقي على وجه الأرض كائن حي واحد، فانظر في آخر آية وآخر درس في سورة فاطر العظيمة: "وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَٰكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا (45)"[218]

فهو سبحانه يرحم ويصبر على خلقه، ويؤخرهم إلى ميقات وميعاد وأجل محدد مسمى، فمن اهتدى سلِم وغنِم، ومن استكبر ذلّ وندِم....

فالتوبة رحمة، وصبر الخالق على ضلال المخلوق رحمة، وغفرانه للذنوب رحمة، ورأفته بخلقه رحمة، واستجابته لدعاء الداعي ونداء المضطر رحمة، وفي القرآن العظيم من ذلك فضل كثير فانظر وتدبّر...

---

[217] الأنعام
[218] فاطر

والرحمة أساس سادس بعد العدل وفق رؤيتي للأسس، لأن العدل المحض مهلك للمذنب بالضرورة، فهي إطار للعدل، فعدل الله سبحانه ضمن رحمته، وهو التواب الرحيم، بيّن مدى رحمته وكونه رحمان الدنيا والآخرة في أكثر من سورة وضمن أكثر من آية.

وأهل العلم بالله يدركون قيمة ومعنى رحمته وشساعتها وعظمتها، فانظر أعلمهم بالله كيف يناجون الله: "الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (7)"[219]

فرحمة الله التي كتبها على نفسه وسعت كل شيء، فهي شساعة ورحابة تفوق ما ييسر الخيال لابن آدم من تصور، ولكن الرحمة الإلهية مشروطة محسوبة بحسبان دقيق، ولئن كانت الشروط خاصة بأهل التكليف إذ رحمة الله أشمل وكل مخلوق وكل ما في الوجود -عدا أعداء الحق إنسا وجنا- ضمن رحمة الله.

والشرط والحسبان في الرحمة بالمكلفين قانون تجده في آيات كثيرة نستشف منها معنى من معاني الحسبان القادم في ما يلي من بيان، فسؤال حملة العرش لله عن رحمة للتائبين والذين يتبعون سبيل الله، لا لسواهم، ولعلك واجد حجة إن رجحّت النظر فانظر قوله مثلا لنبيه موسى الذي ناجاه وسأله: "وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ

[219] غافر

وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (156)"[220]

فهؤلاء المتقون والتائبون هم أهل الرحمة الربانية، فرحمة الله سبحانه رحمة حكمة وحسبان، وليست إفراطا ولا تفريطا، فلا رحمة للمجرمين وأعداء الله، الكافرين بالله ولقائه، فهم ملعونون مُبعدون، بائسون من رحمة الله يائسون، مفلسون وكحال إبليس مُبلسون: "وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (23)"[221]

فأعداء الله يائسون من الرحمة محرومون منها وخارجون عن أطرها منضوون تحت لواء الجبروت والسطوة والنقمة الإلهية فالرحمن عليهم لا لهم ومحيط بهم لا معهم فليسوا في كنف الرحيم بل تحت سطوة المنتقم ذي الطول شديد العقاب، وتجد آيات الشدة والنقمة والقسوة والحسم مع هؤلاء كثيرة في كتاب الله فانظر، ولسوف تجدني أبين أوجها ضمن النقد المطلق في علم النقد.

وإن الهداية والإضلال بالمشيئة الربانية حكمة إلهية مهما بلغنا من الإدراك فلن نفهمها كليا...ولا يحتاج الله لمن يبرر له ما يفعل تعالى وجل وعلا...لكن الكلام من باب البيان، فالله يهدي من يشاء رحمة...ويضل من يشاء حكمة...وهو عدل في هذا وذاك..وهو الرحمن سبحانه...المتفرد بالرحمة المطلقة....فلا رحمة في قلب مخلوق إلا من رحمة الله..ومن تنزع من قلبه الرحمة فهو

[220] الأعراف
[221] العنكبوت

ميت القلب ولا خير فيه..بل هي قسوة الكفر وجفاف العين وجمود الفكر وانعدام الإحساس، فذلك شأن قوم غضب الله عليهم فكانوا من الحجارة أشد قسوة ومواتا: " ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (74)"[222]

وإن الإنسان لو علم القوة الجبروتية لله سبحانه..ثم اطلع على شرور أهل الشر وصنائعهم..لرأى عظمة الرحمة الربانية ولعجب من صبر الله مع قدرته عليهم....فالصبر الإلهي رحمة عظيمة..ولعل في كون الصبور آخر أسماء الله الحسنى دليل على عظمة الصبر ومكانته لدى الله وخلقه، لكنه للخلق قوة يواجَه بها الضيم ويُتحمّل بها البلاء، وعند الخالق رحمة إذ الخالق لا يُضام، بل يصبر على العاصي حتى يتوب وعلى المذنب حتى يستغفر وعلى أهل الباطل حتى يرتدعوا عنه بعد فتنة، أو يؤخذون مفتونين، وعلى أهل الحق حتى يُنصر الحق بهم وفيهم بعد بلاء ومحنة، أو يلاقون ربهم صابرين.....

الرحمة إذا أساس جوهرية للملك الإلهي..إطار يتسع ولا يضيق، ولكن لديه خواص كثيرة، منها التخلل وهو اللطف فلا يدري الإنسان متى تأتي الرحمة الإلهية أو من أين تأتي، فمن ذلك الرحمة

---

[222] البقرة

بالرزق وتيسير الأمور، والتي من شروطها التقوى: "وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (2) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (3)"[223]

والرحمة الإلهية مشروطة بأمور محددة منها التقوى كما ذكرت واليقين الإيماني وإتباع سبيل الله كما رأيت في مناجاة حملة العرش وكلام الله سبحانه لموسى، وهي رحمة قريبة من أهل الإحسان والإيقان: "إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (56)"[224]

رحمة مودعة في قلب نبي كريم فكان له أثر في تعامله مع أهل التكليف، وكان لذلك دور هام في نشر الإسلام والتعاليم المحمدية فلو أن القسوة الفظة قامت مقام الرحمة لما كان هنالك انتشار واستمرار، وإن في ذلك لحكمة عظيمة في نشر الدعوة تعطي دروسا للداعي لله كي يكون عامر القلب بالرحمة، وهي من دروس هذه الآية العظيمة من سورة آل عمران: " فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (159)"[225]

والنبي الكريم عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم الذي أودع الله فيه هذه الرحمة العظيمة، هو في ذاته ورسالته وكيانه رحمة محض،

[223] الطلاق
[224] الأعراف
[225] آل عمران

فانظر قوله سبحانه في آية بينة المعنى جلية المضمون ثابتة الحكم واضحة البيان: " وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ (107)"[226]

إنه تحديد وتوضيح لجوهر المهمة وحقيقة الذات المحمدية، رحمة للعالمين مرسلة من رب العالمين، فذلك محمد كما أقرّ رب محمد، وما الصلاة عليه من الله وملائكته وأمر كل مؤمن بها إلا رحمة عظيمة، فصلى الله على محمد الرحمة المهداة وإمام الهداة....

ولرحمة الله سبحانه آثار خفية يمكن استشعارهما وهو اللطف المتخلل، وآثار جلية يمكن معاينتها ومشاهدهما والإحساس بها، ويمكن لكل إنسان رؤية ذلك جليا واضحا في ذاته ومن حوله فتأمل قوله سبحانه: "فَانْظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (50)"[227]

دعوة للنظر والفهم والتأمل والتدبر، في رحمة لها آثار في حياة الأرض وإحيائها بعد موتها وجفافها وهمودها، فذلك من شواهد الرحمة الظاهرة، ولها شواهد أكثر لا يمكن الحصر ولكن يمكن التيقن، فكأن كل ذلك بصمة تدل على وجود خالق رحيم لكل ما تراه العين ويشاهده الإنسان، ليكون بذلك دليلا على إمكان إحياء الميت من بني الإنسان ما دام الموت واحدا والإحياء واحدا، والمحيي المميت واحدا وهو قدير على كل شيء...

---

[226] الأنبياء

[227] الروم

ولقد امتزجت الرحمة بالرأفة فكانت للعباد يسرا ونعمة ومجالا لكل خير من لدن رءوف لطيف رحيم: "فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (47)"[228]

رأفة ورحمة مدّت للرحمة المهداة عليه الصلاة والسلام، فمنحه الله من جلال الاسم ومعناه وحقيقة سره فضلا بينه حين قال: "لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (128)"[229]

فهي الرأفة والرحمة تتجلى في نبي الرحمة بأمر الرءوف الرحيم سبحانه، وهي رأفة ورحمة تجلت في ما أنزل الله الرحيم على عبد له بالمؤمنين رءوف رحيم، ليخرجهم من ظلمات الجاهلية والجهل والشرك إلى نور الرحمة والإيمان واليقين والعلم والحكمة: "هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (9)"[230]

رأفة ورحمة يُسرت للمؤمنين ويسّر الله لهم بها فزكاهم ونجاهم من الشيطان ونزغه وفتنته، فانظر آيات من سورة النور تبين عظمة الرأفة والرحمة الربانية وتعطي تعاليما قيمة على حكمة وبصيرة وهدى من رءوف رحيم: "وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (20) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ

[228] النحل
[229] التوبة
[230] الحديد

وَالْمُنْكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (21)"[231]

وفي السورة مواعظ ودروس رحمانية على المؤمن التفكر فيها والعمل بها وتطبيقها ليكون من أهل الرحمة.

وهي رحمة مودعة في أمة الإسلام والإيمان أنارت أرجاء الكون علما وخلقا وجسدها رجال لله علموا الناس معنى ان تكون الأمة وسطا فلا غلو ولا تفريط، فذلك من سر الرحمان المودع في صالحي أمة محمد ضمن تمش وبناء وموعظة وبيان تجده في هذه الآية وهي من أعظم الآيات القرآنية: "وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (143)"[232]

وإن الشرح ليطول كثيرا والأطر تتعدد فهذه الآية تحمل علما ونورا وهديا وتبيانا...لكن ما يهم سياقنا أن ذلك من رأفة ورحمة الله مع حكمة عظيمة وحقيقة تؤلم من تدبر معناها في مثل هذا الزمان وتؤلم من تدبر المعنى مع علم بالتاريخ ومآسيه وما فعله أعداء الله ورسوله والدين والأمة بالدين وأهله وبالناس، فليس أوجع على القلب حين يرى كل ذلك من هذه الآية: " كُنْتُمْ خَيْرَ

---

[231] النور
[232] البقرة

أُمَّـــةٍ أُخْرِجَـــتْ لِلنَّـــاسِ تَـــأْمُرُونَ بِـــالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَـــوْنَ عَـــنِ الْمُنْكَـــرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ (110)"[233]

فذلك دليل علـــى أنها أمـــة رحمـــة، وكـــذلك ينبغـــي أن تكـــون، وذلـــك مما يسأل الإنسان ربه الرحمة بـــه والرحمـــة فيـــه والرأفـــة بمـــن لم يجـــد قـــدرة على بلوغه جماعيـــا مـــع صـــدق الرغبـــة، ولـــيس في الأمـــر في يقـــيني مـــا يـــبرر ســـجن الـــزمن تقهقـــرا وإيقـــاف التـــاريخ رجعيـــا ورفـــض الواقـــع بقسوة وجلافـــة، كمـــا لا يمنـــع كـــل ذلـــك مـــن وجـــود صـــفوة تجســـد هذه الآية بشكل مســـتمر إلى آخـــر الزمـــان ومنتـــهاه رغـــم كـــل مآســـي التـــاريخ وقصـــور التطبيقـــات وكثـــرة الظـــالمين والمتقاعســـين والمجـــانبين للحق.

الرأفة والرحمة الربانية مـــع كـــل مـــا بيننـــا مـــن خصوصـــيتها ونورانيتـــها وســـرها، هـــي أبيضـــا عامـــة للنـــاس – إلا مـــن اســـتثنى الله- مباشـــرة تســـخيرية كونيـــة وجوديـــة، مشـــاهدة ملموســـة يمكـــن لكـــل ذي لـــب تبينها وعليـــه حقهـــا مـــن شـــكر لله وعرفـــان وخضـــوع وعبـــادة: " أَلَـــمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَـــخَّرَ لَكُـــمْ مَـــا فِـــي الْـــأَرْضِ وَالْفُلْـــكَ تَجْـــرِي فِـــي الْبَحْـــرِ بِـــأَمْرِهِ وَيُمْسِـــكُ السَّـــمَاءَ أَنْ تَقَـــعَ عَلَـــى الْـــأَرْضِ إِلَّـــا بِإِذْنِـــهِ ۗ إِنَّ اللَّـــهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (65)"

ويمكن مـــن خـــلال هـــذا النظـــر في تقســـيمات للرحمـــة مـــن التســـخيرية العامـــة إلى النورانيـــة والإيمانيـــة الخاصـــة وغـــير هـــذا كـــثير يضـــيق بـــه المجال، ولكـــن ضـــمن ســـياق الرأفـــة والرحمـــة لـــرءوف رحـــيم علـــي أن

---

[233] آل عمران

أشــير دون إفاضــة لأني مؤجــل الإفاضــة لكتــاب يلــوح لخــاطري وعقلي تدوينــه عــن ســورة الفاتحــة، والإشــارة عــن أول آيــات الفاتحــة وفاتحتــها ومســتهل كــل ســورة في كتــاب الله – عــدا بــراءة – وهــي البســملة الــتي وإن غابــت عــن مســتهل ســورة التوبــة لأنهــا ســورة حرب نزلت في ظرف شــديد بــأوامر شــديدة كمــا هــو معلــوم في شــأن نزولهــا، فــإن البســملة ظهــرت في ســورة النمــل لتكــوّن التــوازن في بســملات القــرآن بعــدد الســور إذ في النمــل بســملتان أولاهمــا مــا يُستهل بــه والثانيــة ضــمن رســالة نــبي الله ســليمان عليــه الســلام إلى الملكة بلقيس وهي رســالة أرســلها مــع الهدهــد الــذي جــاء مــن ســبأ بنبأ يقين فقرأتهــا علــى أهــل مشــورتها ووزرائهــا وقــادة جيشــها والمــلأ مــن حولهــا: "إِنَّــهُ مِــنْ سُــلَيْمَانَ وَإِنَّــهُ بِسْــمِ اللَّــهِ الــرَّحْمَٰنِ الــرَّحِيمِ (30)"[234]

هذه البسملة لها ســرها الــذي ســأفرده في كتــاب خــاص بعــون الله عــن فاتحة الكتاب، ولكــن مــا يمكــن قولــه باختصــار في إطــار الرحمــة أنهــا تحتــوي اســم الله مــع بــاء للوســيلة والتوســل ثم الــرحمن الــرحيم، فالرحمــة حاضــرة في كــل بســملة، في مســتهل كــل ســورة القــرآن إلا ما استثنى الله، وهذا بيــان لمــا للرحمــة مــن حرمــة، وهــي صــلة بــين الله وخلقه، صلة أكــد الله قيمتــها حــين أمــر بمراعــاة صــلة الــرحم، لأنهــا من الرحمة، عهد إلهــي بــين النــاس، فقــال ســبحانه في آيــة تحمــل مــن علم الــربط بــين النــاس ومــن صــلات البشــر والعلائــق بــين الــرحم

[234] النمل

والرحمة والتقوى وتطبيقها وربطها مباشرة بصلة الرحم دلالة على القيمة والمكانة وكونها إلزام على المرء ولزوم للمسلم والتزام للمؤمن الكثير والكثير: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (1)"[235]

وللرحمن الرحيم في البسملة شأن وعلم ينفتح على باب شاسع واسع تدبرته كثيرا وفي روع القلم كلام وأفكار وإلهامات تنوء لها الأوراق، ولكني مختصرا أقول أن الرحمة الإلهية شاملة لكنها مع أهل التكليف بحسبان كما ذكرت، فهي لأهل الإيمان خاصة ، ضمن حسبان، أي ضمن نظام وتقدير وضوابط، فلئن كانت الرحمة الإلهية مطلقة، فان تطبيقها محسوب ومشروط، فالله سبحانه هو الرحمن بشكل مطلق كلي، وهو في نظري اسم ذات متعلق بالذات ورد في القرآن ثمانية وأربعين مرة بسياقات جمعته بالرحيم أو كان لتمييز عباد الله (عباد الرحمن) وغير ذلك وخصصت له سورة خاصة هي الرحمن: "الرَّحْمَٰنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2)"[236]

وهنا ما أسميه مقام الرحمانية، وهو مطلق شامل منضو تحته كل الخلق عائد على الذات الإلهية أساسا.

---

[235] النساء

[236] الرحمن

أما مقـــام الرحيميـــة، فرحمـــة نســـبية بشـــروط وحـــدود وضـــوابط وتـــرد متصلة بالرأفة لأن الرأفـة تسـتوجب الرحمـة وهـي نظـر في ضـعف مـن تشمله النظرة الرحيمة.

واسمـه تعـالى "الــرحيم" في اعتقـادي اسـم ذات متعلـق بـالخلق، فهـو مقام لأهل التقى ولمـن صـبر واتقـى ونظـر وارتقـى منضـو تحتـه بعـض الخلـق عائـد علـى العبـاد أساسـا. وهـذا بـاب ضـمن علـم الأسمـاء الحسنى ومعانيها ومقاماتها دونـت منـه فضـلا مـن الله وأنـا بـين إيـراده أو إفراده....

وهنا تكون الرحيمية صـلة بـين الله وخلقـه فهـو رحـيم بعبـاده، لطيـف بهم، وهنـا تجـلّ لاسمـه اللطيـف ولخفـي لطائفـه وجلـي لطفـه بالعبـاد حفظا ورزقـا ومغفـرة وهدايـة وتزكيـة وخـيرا: " اللَّـهُ لَطِيـفٌ بِعِبَـادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ ۖ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (19)"[237]

فهي صلة رحيميـة لطيفـة يدخلـها الإنسـان برحمـة مـن الله، ليكـون في كنف الرحمـة، ومـن وُصـلت صـلاتهم صـاروا صـالحين مبـاركين مـن الله سبحانه، فمـن ذلـك قولـه سـبحانه علـى لسـان عبـده سـليمان في سورة النمل بعـد سماعـه لمقالـة النملـة ضـمن منطـق يحتـاج تـدبرا: " فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِـنْ قَوْلِهَـا وَقَـالَ رَبِّ أَوْزِعْنِـي أَنْ أَشْـكُرَ نِعْمَتَـكَ الَّتِـي أَنْعَمْـتَ عَلَـيَّ وَعَلَـىٰ وَالِـدَيَّ وَأَنْ أَعْمَـلَ صَـالِحًا تَرْضَـاهُ وَأَدْخِلْنِـي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (19)[238]

---

[237] الشورى
[238] النمل

وهذه الصلة الرحيمية فيها صلات أخرى، ومن أبواب صلات الرحمة الصلاة التي تصل العبد بربه وبرحمته ورأفته ومغفرته....ولي في "كتاب الصلاة" عودة إلى هذا الأمر.

ختاما، فإن الكلام في الرحمة الإلهية وأوجهها ومظاهرها ومعانيها ولطائفها وآثارها الظاهرة والباطنة يطول كثيرا ويعذب كثيرا..فسبحان الرحيم الرحمن، نسأله الرحمة بالعفو والرحمة بالسلطان، رحمة بالمدد ورحمة بالبرهان، رحمة بالنور ورحمة بالقرآن، تغسل الذنب وتمحو السوء ولا تؤاخذ الخِطْأ والنسيان، تُنزل النعم وتَرفع النقم وتشمل الدارين في آن......

" وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (118)"[239]

[239] المؤمنون

الحسبان

"الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (5)"[240]

للحسَب في اللغة معان كثيرة، منها الشرف الثابت في الآباء أو في الفعل، والمال، والدين، والفَعال مثل الجود والشجاعة وحسن الخلق، ومنها العدد وقدْر الشيء، فمن ذلك الحسْب (يعني أيضا الاكتفاء أما الإحساب فهو الإكفاء) والحساب (أو الحسابة أي عد الشيء كما في لسان العرب)، وهو ما يعنينا ضمن الحسبان، فالحسبان هو الحساب، وهو على قول آخر جمع للحساب وكذلك أحسبة، وفي نظري الحسبان جمع الجمع للحساب، أي هو جمع الأحسبة، فالحسبان حسابات كثيرة وأحسبة عديدة.

الله سبحانه وتعالى هو الحسيب، أي الكافي، وفي اعتقادي أن الحسيب هو الذي يحصي ويقدّر دون تفريط أو تفويت، فالحسيب وفق رؤيتي هو صاحب الحسبان، وفي لسان العرب: {وحُسْبانُكَ على اللّه أَي حِسابُكَ. قال: على اللّه حُسْباني، إِذا النَّفْسُ أَشْرَفَتْ * على طَمَعٍ، أَو خافَ شيئاً ضَمِيرُها}. وحين ننظر للحسبان أبعد من حساب النفس والآيات الواردة بهذا المعنى كثيرة، نجد الكون كله والوجود بأكمله، وأمكن لنا التبصر بحقيقة الحسبان وفق ما أراه من معناه، إذ للحسبان حسب فهمي له أطر كثيرة أخرى،

---

[240] الرحمن

وهـــو في اعتقـــادي الأســـاس الســـابع والأخـــير وفـــق رؤيـــتي لأســـس الملك الإلهي.

للـــربط بمـــا ســـبق، فـــإن الحســـبان في إطـــار الرحمـــة مقيـــاس وشـــرط وضابط، فرحمة الله ليست جزافـــا، فلـــها شـــروط كمـــا بينـــا أولهـــا تقـــوى في قلب المؤمن..وهذا الحســـبان ذكـــرت لـــك منـــه في الرحمـــة مـــع بعـــض من الآيات المبينـــة لـــه، وهـــو في اعتقـــادي مختـــزل في هـــاتين الآيـــتين مـــن ســـورتي الأعـــراف والعنكبـــوت: "قَـــالَ عَـــذَابِي أُصِـــيبُ بِـــهِ مَـــنْ أَشَـــاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُـــلَّ شَـــيْءٍ فَسَـــأَكْتُبُهَا لِلَّـــذِينَ يَتَّقُـــونَ وَيُؤْتُـــونَ الزَّكَـــاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآَيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (156)"[241]

"وَالَّـــذِينَ كَفَـــرُوا بِآَيَـــاتِ اللَّـــهِ وَلِقَائِـــهِ أُولَئِـــكَ يَئِسُـــوا مِـــنْ رَحْمَتِـــي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (23)"[242]

فتدبّر تفهم، وانظر ترى وتعلم....

ذُكر الحسبان لفظـــا في القـــرآن في مواضـــع ثلاثـــة، أولهـــا قولـــه ســـبحانه في ســـورة الأنعـــام: "فَـــالِقُ الْإِصْـــبَاحِ وَجَعَـــلَ اللَّيْـــلَ سَـــكَنًا وَالشَّـــمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (96)"[243]

وهنـــا منـــازل الشـــمس والقمـــر كمـــا ســـلف الفهـــم، وهـــي تقـــديرات ربانية ضمنها مسائل كثيرة أقرها الزمن وتأثيراته.

---

[241] الأعراف
[242] العنكبوت
[243] الأنعام

ثم قوله سبحانه في سورة الكهف:" فَعَسَىٰ رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا (40)"[244]

ضمن قصة فيها مواعظ وعبر، والحسبان من السماء عذاب مسلّط وورد في التفاسير أنه جمع حسبانة وهي المرامي أي ترمى بالعذاب رميا وتُقذف به، وليس لهذا علاقة بما نحن فيه من معنى الحسبان العام، وإن تعلق بتفصيل منه يندرج ضمن الحساب الإلهي.

ثم الآية الخامسة من سورة الرحمان التي منها استلهمت هذا الأساس: "الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (5)"[245]

هنا جانب فلكي للحسبان، الحسبان يخرج بنا عن الإطار المتصل بالرحمة كضابط لها، إلى ما نرمي إليه من مفهوم الحسبان كأساس ملكوتي، أي إلى كل الحسابات في مملكة الله وفوقها من مقادير وسواها، فكل شيء محصى عند الله، فهو إحصاء كلي شامل دقيق، ضمن معنى الحسب أي عدد الشيء وقدره، فلك أن تحاول تمثل أوجه ذلك في الكون، في الأرض، في الذرات، والمجرات، ولن تصل بخيالك لصورة واضحة إذ أن المرئي قليل أمام اللامرئي، والمشاهد قليل أمام الغيبي، وكل ذلك وفوقه ضمن حسبان الله سبحانه، أمر يصعق العقل بتصوره..والله سبحانه يحصي على الناس كل شي ويكتبه بحسبان دقيق، فربط بين

244 الكهف
245 الرحمن

الأمرين والحسبانين، مع القدرة على إحياء الموتى وفي ذلك حسبان عظيم، في آية عظيمة من سورة عظيمة من القرآن الحكيم: "إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ (12)"[246]

إن تدبري في هذه الآية يبعث الرهبة في قلبي والحيرة في عقلي حيرة ذهول من عظمة الله ورهبة جلال لله، فسبحان الله وهذا أدعى للعلم بالله بعد الإيمان بالله وللتسليم لله وتقوى الله...

والحسبان مرتبط بعلم الحساب وعلوم الأرقام، فالله حسب كل شيء بدقة لا يمكن تصورها، ولا يمكن لك أن تدرك حسابات يومك وحياتك إذ تنسى كثيرا في اليوم الموالي ولو نظرت إلى رقم متسلسل ثم حاولت تذكره لنسيته، فتأمل عظمة الله، فهو إحصاء بلا نسيان، لما هو كائن ولما سيكون ولما كان، فتأمل رد نبي الله موسى عليه السلام على عدو الله فرعون عليه اللعنة: " قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ ۖ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى (52)"[247]

ثم تأمل كيف أن البشرية تنسى كثيرا فإذا جاء يوم الفصل تبين لها أن الله أحصى كل شيء بلا تفويت ولا نسيان: " يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا ۚ أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (6)"[248]

---

[246] يس
[247] طه
[248] المجادلة

فالله سبحانه هو المحصي، وهو المحيط بكل شيء إحاطة إحصاء كلي وحسبان تام، وهو الذي لا يشغله حساب عن حساب وشيء عن شيء، فذلك مع حساب العبد ومحاسبة الخلق من معاني قوله سبحانه: "إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (4)"[249]

ولقد جعل من ملائكته موكلين بهذه الحسابات وهم العادّون، فذلك المعنى الذي أرتضيه لهم في قوله سبحانه: "قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ (113)"[250]

إذ الأمر أدق وأشمل من مقدورات البشر على الحساب والعد....ولكنه مندرج ضمن نظام ملائكي حسباني معقد جدا، فهنالك ملائكة موكلون بالحسبان الإلهي، منهم العادّون الذين ذكرنا ضمن مجال واسع شاسع من الحسبان عامة، ومنهم مخصصون بحسبان خاص محدد فمن ذلك رقباء يراقبون ويحسبون على الإنسان كل حركة وسكنة وكل حياته من أولها إلى ختامها فهم الحفظة الحافظون الكرام الكاتبون: "وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (10) كِرَامًا كَاتِبِينَ (11) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (12)"[251]

فهم متخصصون في الشأن الإنساني (ربما التكليفي للثقلين) حيث خصص الله لكل إنسان ومكلّف مراقبين شخصيين: "مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (18)"[252]

---

[249] المائدة
[250] المؤمنون
[251] الإنفطار
[252] ق

وكـــذلك خصـــه رحمـــة ولطفـــا بحـــافظين ومعقبـــات يحفظونـــه ويراقبونـــه ويتابعونه ليلا ونهارا: "سَـــوَاءٌ مِـــنْكُمْ مَـــنْ أَسَـــرَّ الْقَـــوْلَ وَمَـــنْ جَهَـــرَ بِـــهِ وَمَـــنْ هُـــوَ مُسْـــتَخْفٍ بِاللَّيْـــلِ وَسَـــارِبٌ بِالنَّهَـــارِ (10) لَـــهُ مُعَقِّبَـــاتٌ مِـــنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ (11)"[253]

وكل هـــذا قـــائم بحســـبان دقيـــق جـــدا، وهـــو حســـبان إحصـــائي دقيـــق شامل يندرج ضمن "الرصـــد"، الـــذي يـــرتبط بمراقبـــة دقيقـــة عـــن قـــرب بشكل حســـابي إحصـــائي، وكـــذلك إحصـــاء أعـــداد كـــل شـــيء حيـــث لا يغيـــب ويعـــزب شـــيء مطلقـــا، وتجـــد كـــل هـــذه المعـــاني في قولـــه سبحانه: " إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُـــولٍ فَإِنَّـــهُ يَسْـــلُكُ مِـــنْ بَـــيْنِ يَدَيْـــهِ وَمِـــنْ خَلْفِهِ رَصَـــدًا (27) لِـــيَعْلَمَ أَنْ قَـــدْ أَبْلَغُـــوا رِسَـــالَاتِ رَبِّهِـــمْ وَأَحَـــاطَ بِمَـــا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا (28)"[254]

فالغيب والعلـــم بـــه حســـبان لمـــا هـــو آت وللمقـــادير كلـــها، والرصـــد خصـــص هنـــا بالأنبيـــاء، لكـــن الله يرصـــد كـــل شـــيء، فهـــو بالمرصـــاد دائما: " إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (14)"[255]

كمـــا تجـــد اختـــزالا لـــذلك وتبيانـــا للحســـبان في آيـــتين عظيمـــتين حسبانيتين سبحانيتين فيهمـــا مـــن ســـبحاته ســـبحانه ومـــن حســـبانه جـــل شـــأنه وتجـــد ترســـيخا لـــذات الكلمـــات مـــع تغـــيير حســـب المجـــال والسياق فهي آيـــة واحـــدة أعـــاد الله ذكرهـــا مـــع تعـــديل لهـــا وفي ذلـــك حكمـــة وروعـــة ومقـــدرة وبيـــان وبرهـــان، فســـبحان عظـــيم الشـــأن

---

[253] الرعد
[254] الجن
[255] الفجر

الرحمن، فأما الآية الأولى فقوله في سورة يونس: " وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (61)"[256]

وأما الثانية فمن سورة سبأ: " وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (3)"[257]

فأنت ترى أن قوله سبحانه: في كلّ من الآيتين، وهو بيان حسباني إذ الله سبحانه لا يعزب (أي لا يغيب) عنه شيء في السموات والأرض مهما كان ولو مثقال ذرة (تطور المعنى من علم معنوي فسّر الذرة على أنها النملة الحمراء التي لا وزن لها أو حبة الخردل، إلى علم تكويني وهو في نظري علم الذرة وجزئياتها الوزن الذري وتعقيداته، ثم وجود ما هو أصغر من الذرة وما هو منبن منها وأكبر ضمن ذلك الكون الذري الذي لم يكتشف إلا منذ حين في زمن بني الإنسان العلمي المدون، وهو درس في تطور التفسير وفق التطور العلمي).

لكن الاختلاف أن الحسبان الأول (آية سورة يونس) مشاهد لحال النبي وجميع شأنه، ولكل عمل يقوم به المؤمنون والناس عامة

---

[256] يونس
[257] سبأ

ووجـــود شـــهود معـــاينين، وقـــد يكـــون قولـــه ســـبحانه "كُنَّـــا عَلَـــيْكُم شُـــــهُودا" ضـــــمن معـــــنى عزتـــــه وجـــــلال ذاتـــــه، أو ضـــــمن معـــــنى الله وملائكته. أما الثـــاني (آيـــة ســـورة ســـبأ) فغـــيبي عـــن الســـاعة، دحضـــا لدعوى الكفـــار، وتأكيـــدا لقـــدرة الجبـــار، وفي الحـــالين فـــالله ســـبحانه لا يغيب عنـــه شـــيء مطلقـــا مهمـــا كـــان، فهنـــا بابـــان للحســـبان الغـــيبي والمشاهد وأمـــور قـــد تراهـــا في علـــم التمـــاهي وضـــمن علـــوم الكشـــف والمشاهدة، وإن مثقـــال الـــذرة يدعمـــه مثقـــال آخـــر فيـــه تجـــل لعظمـــة الحسبان الإلهـــي في ارتبـــاط في العـــدل وكنـــت ذكـــرت الآيـــة في إطـــاره وصرحت أني معيد لهـــا في هـــذا الإطـــار الحســـباني وهـــي قولـــه ســـبحانه:

" وَنَضَعُ الْمَـــوَازِينَ الْقِسْـــطَ لِيَـــوْمِ الْقِيَامَـــةِ فَلَـــا تُظْلَـــمُ نَفْـــسٌ شَـــيْئًا ۖ وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ (47)"[258]

فسبحان الله ما أرعوها مـــن آيـــة، ومـــا أعظمـــه مـــن عـــدل، ومـــا أدقـــه من حساب، وما أجلـــه مـــن اكتفـــاء، ومـــا أظهـــر الحجـــة، ومـــا أوضـــح البينـــة، ومـــا أقـــوى البرهـــان، ضـــمن الحســـبان الإلهـــي وضـــمن الدقـــة والقدرة والإحصاء الكلي، مـــا يعجـــز عنـــه بيـــاني ويســـبح بحمـــد الله بـــه كياني.

كـــل مـــا بينـــت لـــك مـــن الحســـبان، فالحســـبان نظـــام ربـــاني وجـــوهر ملكـــوتي، وهـــو أيضـــا نظـــام فلكـــي وكـــوني دقيـــق ضـــمن مـــدارات وتحركات كونية لـــو أنـــك نظـــرت في آخـــر اكتشـــافات العلـــم بتقنياتـــه

[258] الأنبياء

الحديثة وما كتبه علماء مختصون عن دقة النظم والحسابات الكونية ضمن دقائق زمنية ومكانية وحركية وحسابية وتوازنية على غاية الدقة والتعقيد والانضباط الحسابي المذهل، لتيسر لك بعض الربط واليقين الإيماني رؤية جانب من عظمة الحسبان الإلهي.

ويبقى العقل قاصرا مهما أوتي من آليات عن إدراك شمولي للحسبان، لكن علم الفلك تحديدا مع فنون في الرياضيات والفيزياء والكيمياء وعلم التكوين البشري في تركيبات جسمه وخاصة حمضه النووي من الأمور والعلوم التي تكشف من دقائق الحسبان الإلهي، وفي كل مرة يذهل العقل باكتشاف جديد في هذه الميادين خاصة فيقنن ما استطاع ويترك ما لم يستطع نظريات عامة أو مجرد أوراق بيضاء من الحيرة، فإن العلم البشري سيقطع زمنا طويلا قبل أن يدرك تفصيلا كليا سر هذه الآيات: "الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (5)"[259]

فهي آية عظيمة من سورة عظيمة، وعلم التفسير القرآني في هذه الأطر العلمية يحتاج علما ونظرا وأخذا من فنون العلم المتوفرة لتعميق الفهم، لكنه يظل فهما محدودا بحدود العلم البشري نفسه، ولئن مكن الله له بعضا من الفهم جعل أهل هذا الزمان أكثر فهما للآيات المتعلقة بعلوم التكوين من سابقيهم.

---

[259] الرحمن

والملاحـــظ لـــدي أن في الآيـــتين حســـبانا عظيمـــا فيـــه علمـــين أساســـيين ضـــمن الحســـبان همـــا الحســـبان الظـــاهر والحســـبان البـــاطن، وهنالـــك متعلقات مكانيـــة وزمانيـــة لـــه، وغيرهـــا كـــثير، فالماضـــي حســـبان ظـــاهر لما ظهر وكـــان، والآتي حســـبان بـــاطن لمـــا خفـــي في المقـــادير، وفي الآتـــين التي ذكرنا ومـــا بعـــدها ســـر أستشـــفه الآن وأنـــا أدون هـــذه الكلمـــات، فتأمـــل قولـــه ســـبحانه: " الشَّـــمْسُ وَالْقَمَـــرُ بِحُسْـــبَانٍ (5) وَالـــنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (6)"[260]..

الأولى حســـبان ظـــاهر يمكـــن البحـــث والتقصـــي فيـــه بالعقـــل والآليـــات المختلفة خاصة عـــبر علـــم الفلـــك....ويمكـــن النظـــر في مـــوازين الســـماء العجيبة مع تأمل في الآيـــة المواليـــة لمـــا ســـلف: "وَالسَّـــمَاءَ رَفَعَهَـــا وَوَضَـــعَ الْمِيزَانَ (7)"[261]

أما ســـجود الـــنجم والشـــجر فحســـبان بـــاطن لا يمكـــن للعقـــل قياســـه والتأكـــد منـــه ومشـــاهدته، فمـــن مـــن النـــاس رأى نجمـــا او شـــجرا ســـاجدا أيـــا كـــان معـــنى الســـجود، فهـــو مـــن الحســـبان البـــاطن في اعتقـــادي، فهنالـــك عـــدد لا يمكـــن تصـــوره لنجـــوم الســـماء وأشـــجار الأرض وكـــذلك لســـواها وكـــل هـــذا ســـاجد لله معتـــرف بوجـــوده وكـــل هـــذا أحصـــاه الله عـــدده ظـــاهرا وأحصـــى تســـبيحه باطنـــا فـــإن أردت أن تمضـــي قـــدما رأيـــت أنـــك روح وأنـــك في النـــوم يتـــوفى الله نفســـك ويبعثهـــا وأن أحلامـــك ورؤاك بنســـق معـــين إن كنـــت تـــدرك أو لا تدرك، وكل هـــذا حســـبان بـــاطن، وأن الكـــون كلـــه يســـبح لـــك

[260] الرحمن
[261] الرحمن

شيء بحسبان وسر ونظام خفي يعجز العقل عن فهمه، وكل ذاك حسبان باطن....فانظر إلى هذه الآية في إطار علم الحسبان: " تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ۚ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (44)"[262]

فإن حسبان هذا غير مدرك عقلي ولا مشاهد أو ملموس، لكن الإيمان بصدقية الآيات القرآنية حجة على حقيقة الوجود وإن لم يقدر العقل معاينة فإنه بالإيمان يتمثّل تيقنا..وهنا لا بد من ربط بمعنى الآيتين من يونس وسبأ عن الحسبان المشهدي والحسبان الغيبي، وهو أمر ضمن الزمان والمواكبة أو السبق بشكل حسباني دقيق، فيكون الحسبان الظاهر والحسبان الباطن مكانيان، والحسبان المشهدي والحسبان الغيبي زمانيان، وهذا في اعتقادي جوهر جامع.

الحسبان إذا حسابات دقيقة لنظام مملكة الله، سابعُ الأسس وأدقُّها وأشملُها وفق رؤيتي لها، وهو لله مطلقا، وموزع بين الخلق بنسب، فحسبان جبرائيل غير حسبان بشري ما، وضمنه حسبان ما كان وحسبان ما يكون وهو الأقدار المحتومة والمقضية المختومة، وكل ذلك في علم الله وفي كتاب لله نجهل حقيقة معناه تعقلا ونؤمن به قلبا ونصدقه إيمانا...

[262] الإسراء

وإنــــك إن أردت تــــبين عجـــزك جـــاز لي أن أســـألك ســـؤالا تــــردد في خـــــاطري ذات لحظــــة تأمــــل وصـــــفاء: مـــا عــــدد النجــــوم في الســـماء؟؟..ومـــا عـــدد الأشـــجار في الأرض؟؟..ومـــا عـــدد الـــذرات في جسدك؟؟؟

فان جهلت عـــدد نجـــوم سمـــاء أنـــت تحتـــها، وأشـــجار أرض أنـــت فيهـــا، وذرات جســـد هـــي فيـــك، فـــاعلم حـــدود علمـــك ونســـبة فهمـــك، وانظــر عـــبر ذلـــك إلى عظمـــة ربـــك وقدرتـــه ســـبحانه، وعظـــيم علمـــه ودقة حسبانه، ظاهرا عـــددا، وباطنـــا لمـــن ســـبّح وســـجد، وغـــيره ممـــن لا يخطر في البال...

الحســـبان نظـــام عظـــيم ضـــمن نظـــام الملكـــوت الربـــاني، حامـــل في اعتقادي للرقم سبعة الـــذي لديـــه مـــن الأســـرار مـــا يـــذهل لـــه المتـــدبر فيه، وهـــو في نظـــري تقـــدير النظـــام، حســـاباته كلـــها وإحصـــاءاته ومـــا فيه من دقـــائق وضـــوابط وأعـــداد وغـــير ذلـــك....وفي الحســـبان آيـــات بينـــات وبـــراهين وحجـــج وتـــأملات تـــبنى عليهـــا الكتـــب والأســـفار وتطول في فيها الرحلات والأسفار...

" إِنَّ فِي ذَٰلِـــكَ لَـــذِكْرَىٰ لِمَـــنْ كَـــانَ لَـــهُ قَلْـــبٌ أَوْ أَلْقَـــى السَّـــمْعَ وَهُـــوَ شَهِيدٌ (37)"[263]

وإن من أســـس الإيمـــان ومـــن أعظـــم تجليـــات الحســـبان في الخلـــق: يـــوم القيامـــة، حيـــث يتجلـــى الحســـبان الربـــاني ويكـــون حســـاب ومحاســـبة المكلفين بدقة وهيمنـــة تثبـــت لهـــم أن الله كـــان يحســـب ويستنســـخ كـــل

[263] ق

عمل لهم فيعذب من شاء ويرحم من شاء، فذلك يوم القيامة، يوم الحساب: "هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ (53)"[264]

وهنا سياقات لآيات كثيرة عن الحسبان الرباني يوم القيامة، وعن كتاب الحسبان، كتاب الله أحصى فيه كل شيء، بدقة لا يمكن تصورها، فتأمل قوله سبحانه وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ۚ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (49)"[265]

فذلك ما على كل إنسان تذكره دائما..فيحاسب نفسه أولا.. أو ستكون نفسه عليه حسيبا يوم الفصل فلا يجد محيصا: ومنه ما يكون من شان المحاسب يوم القيامة: "اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (14)"[266]

وتجد ختاما وجها للحسبان وهو الوعي بقدر الحسيب فيحتسب المرء ويكتفي بربه سندا ومؤيدا، حتى إن حاول أعداء الله ورسوله الخديعة والمكر: "وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ ۚ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (62)"[267]

فذلك أمر عظيم لنبي كريم من رب حكيم، ختاما للحسبان وذاك مختتم خير لكل قلب سليم.

---

[264] ص
[265] الكهف
[266] الإسراء
[267] الأنفال

خاتمة

علم الأسس وفق ما بينت لك علم عظيم، تنضوي تحته وضمنه علوم كثيرة، فكل أساس يحمل بوتقة من العلوم، فالعلم يحتاج علما يدرس كنهه، وعلما يدرس نقيضه، فدراسة العلم وحقيقته ضرورة لبيان القيم العلمية والمفاهيم الحقيقية للعلم وجدواه، أما ما يدرس النقيض فهو علم يدرس الجهل، لأن الجهل مفهوم معقد أيضا، فهو ليس فقط الأمية، بل يصل حتى التوهمات العلمية، وصولا إلى جوهر كل جهل في نظري، وهو الجهل بالله، فكما أن تاج العلمِ العلمُ بالله، فإن أفظع الجهل الجهل بالله، وما اكثر الجاهلين.

ثم نجد علم الحكمة وما فيها من علوم تصل من المواعظ والحكم وعلم الأخلاق ثم علم الطب فالطب جوهره حكمة إلى علوم الروحانيات وفنون من الحكمة كثيرة، ثم علم الحق وما فيها من علوم الحقيقة والتوحيد والتشريع والقوانين وفلسفة الحق وما كان تحت لوائه من علوم كثيرة، فعلم القوة المندرج من المفهوم الفعلي للقوة ونظمها وأنواعها، إلى الفيزياء وعلوم الحرب والفنون الدفاعية إلى كل ما يخص القوة وهو كثير..فعلم العدل الذي يتقاطع مع الحق تشريعا وقانونا ويحتوي على مسائل وعلوم كثيرة

أيضا تصل علـم الاجتمـاع والاقتصـاد ومـا خـص العدالـة الاجتماعيـة والاقتصادية فأمور من السياسة ونظم الحكم وغير ذلك.

ثم علم الرحمة ومـا فيـه مـن تمفصـلات وقضـايا ومعـارف وعلـوم بـين الرباني والقـرآني والإنسـاني لعـل علـم الأدب أحـد تمفصـلات الرحمـة فالأدب رحمة بالإنسـان لأنـه تخفيـف ولطـف وإبـداع وارتقـاء وسـلاح في وجه الأحزان والمآسي، وأغصان الرحمة كثيرة جدا.

وفي الختـام علـوم الحسـبان مـن رياضـيات وفيزيـاء وفلـك وكيميـاء، هذا ما يمكن للعقـل تسـميته، وعلـوم كـثيرة لـيس لنـا تسـميتها لأنهـا من الشأن الإلهي فمـا أقـل مـا نجهـل ومـا أكثـر مـا لا نعلـم، ولكـن تأمل ما بينت عـن كـل أسـاس بـاختزال ومنطـق وبيّنـة وشـواهد مـن القرآن العظيم، وسوف تجـد فيمـا سـيأتي بعضـا مـن تفرعـات الأسـس العلمية ضمن مصفوفة مؤطّرة.

علم الأسس مـن أساسـات كتـاب البرهـان، أقـول لـك، ككـثير مـن العلـوم في الكتـاب، أني مبتكـره ضـمن التـأليف والبحـث، ومبتكـر لذلك الترتيب ولمعنى كـل أسـاس وهـو ديـدني في البرهـان مـن ابتكـار وتطوير، ولو قلـت لـك أنـه إلهـام ربـاني لعلـم موجـود وحقيقـي، وأن الإنسـان يصـل إلى أحـوال مـن الرقـي يستشـف مـن خلالهـا العلـوم ويسـتلهمها، لكـان في عقلـك مجـال للأخـذ علـي والطعـن فيمـا كتبت، فلـيكن إذا عمـل عقـل إن شـئت تـدبره، ولـيكن عمـل قلـب إن شـئت تذوقـه، وهـو علـى كـل تأمـل عقلـي واسـتنباط وجهـد إنساني، وهـو فـوق ذلـك مـن نفحـات هـذا الكتـاب العظـيم الـذي

يفتح الله من خلالـه علـى قلـب مـن يشـاء، وهـذه المشـيئة المطلقـة لا تستثني زمنا ولا أحدا ممن شاء لهم الله من ذلك نصيبا قل أو كثُر.

بعد ما بينـت لـك، أمضـي بـك الآن في رحلـة علميـة شـيقة مـع أول علـوم المعـنى وهـو علـم الـذوق..نفحـة أخـرى واسـتنباط وابتكـار آخر، وضمنه نظـر جديـد في علـم الجمـال والأخـلاق والنقـد والحجـة والفقـه، لأمضـي بعـد ذلـك في علـوم أخـرى كـثيرة بـين الظـاهر والبـاطن وبـين المعـنى والتكـوين حـتى يكتمـل "البرهـان"، وتتضـح الحجة والبرهان......